

صدیق شیب

جوتہ

۳۵

۱۹۱

دارالمعارف بمط

اقرأ ٣٥ ...

الطبعة الثانية

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.م



جوتہ

تمهيد

مقدمة الطبعة الأولى

في ربيع سنة ١٩٣٢ احتفل العالم بمرور قرن كامل على وفاة الشاعر الألماني الكبير « جوته » فأقيمت في حواضر الدول الأوروبية وغير الأوروبية حفلات متفرقة تحية لذكراه . وقد اشترك العالم كله بإحياء هذه الذكرى ، لأن « جوته » إذا كان أديبا ألمانيا ، لأنه ولد وعاش بألمانيا ونظم بلغتها شعره الرائع وكتب بها مؤلفاته العظيمة ، فقد كان عالما بأدبه وفنه وفكره وما عاجله فيها من الشئون التي تشمل الحياة في صميمها على اختلاف الأصقاع والبيئات .

لذلك كان من حقه على العالم أن يفخر بعقله الخصب وإحساسه المتقدم وخياله النادر ، وأن يستوحى من حياته الطويلة التي كادت تمتد إلى قرن كامل كل المعظات الجسام التي حفلت بها ، وأن يستخلص من حوادثها دروساً جليلة في الفن والأدب . وقد وسعت هذه الحياة شتى المذاهب ومختلف الأفكار ،

وعصفت بها شتى الأرواح ، وتناوبتها ضروب الاحساسات
 والمشاعر ، حتى كادت تذهب بوحدتها . بيد أن « جوته »
 عرف كيف يستفيد من هذا جميعه خدمة لفنه وأدبه ، وكيف
 يغذى أشعاره وقصصه بالحوادث التي مرت به ، كما عرف أن
 يسمو فوق هذه الحوادث مخلقاً في جو الإنسانية ، حتى صارت
 قصائده وكتاباتة معبرة عن شعور الإنسانية كلها . وقد طاف
 هذا الفنان الكبير بشتى المذاهب الفنية ، واختار أجملها قيمة وأشملها
 إنسانية وأوقعها في النفوس وأقربها إلى الكمال ، وهو الفن اليوناني .
 ولم تقتصر عبقرية على الفن والأدب فشملت العلوم الوضعية ،
 وقد درس بعض فروعها دراسة عميقة ، وانتهى من بحثها إلى
 نتائج بعيدة ، لأنه استطاع أن يدلل على مبدأ الوحدة التي تؤلف
 بين النباتات ، وبرهن على وجود عظم بين الفكين في الوجه ،
 فتقدم بذلك العلماء الذين عنوا بهذه الدراسات في القرن الماضي .
 وصف نابليون جوته بأنه رجل ، أجل فقد كان الرجل
 الكامل الذي استطاع أن يستفيد بجميع مواهبه ، وأن يحتفظ
 إلى آخر ساعة من حياته بعقله وجسمه سليمين قوين . وكان
 يسمو في أعماله وأدبه إلى الكمال ، ويطلق العنان لتفكيره فيذهب

في مختلف الشاعب ويبلغ به أقصى الأغراض .
 وكان لمصر نصيب في إحياء ذكرى «جوته» فأقيمت في
 القاهرة حفلات عديدة ، وكتبت الصحف المقالات الطويلة
 منوّهة بعظمته الخالدة .

ووضع الأستاذ عباس محمود العقاد كتاباً عنه وترجم قطعاً
 متناثرة من روائعه .

ولقد كان من حظ لغتنا العربية قبل ذلك أن نقلت إليها أهم
 مؤلفات جوته هي «آلام ورثر» و «فاوست» .

أما قصة «آلام ورثر» فقد ترجمها الأستاذ جورج مطران
 منذ أربعين سنة ونشرها في «الجملة المصرية» التي كان يصدرها
 أخوه الأستاذ خليل مطران بك . ثم ترجمها بعد ذلك الأستاذ
 أحمد حسن الزيات . وكلا هذين الأديبين ترجم القصة عن
 النص الفرنسي .

وأما قصة «فاوست» فقد ترجم الجزء الأول منها عن الأصل
 الألماني إلى العربية الدكتور محمد عوض محمد ووضع الدكتور طه
 حسين بك لكل من ترجمي آلام ورثر وفاوست مقدمة شائقة .
 وترجم بعد ذلك الدكتور محمد عوض محمد كتاب «هرمن

ودوروتيه « ، كما نقل إلى العربية منذ عامين الأستاذ عبد الرحمن بدوي قصة « وللم ميستر » .

وبعد : فإن أوائل العهد بهذا الكتاب يرجع الى تلك الاحتفالات فقد جمعت أيامئذ مراجعته ، وأطالت النظر فيها وتدبرت أمره ، ولكن ظروف الحياة لم تتح لى كتابته فى شكله الحاضر إلا فى هذه الأيام الأخيرة .

ولقد حرصت على أن يضم تفصيلات وافية عن ترجمة « جوته » وخاصة ما كان منها ذا أثر فى مؤلفاته وأدبه . وقد استمد حوادث تلك المؤلفات من حياته الخاصة ، ولكنه استطاع أن ينتزع منها صوراً للإنسانية الشاملة ، وصار بذلك بين عظماء الإنسانية الخالدين على وجه الدهر .

أكتوبر ١٩٤٥

بين الطفولة والصبا

ولد « ولفانج جوته » في ٢٨ أغسطس سنة ١٧٤٩ بمدينة « فرانكفورت » من أسرة تنتمي في أصلها إلى الطبقة الشعبية ، ولكن جده لأبيه جمع ثروة كبيرة وعلم ابنه « يوهان » الحقوق فلما نال الشهادة ابتاع بماله رتبة مستشار ملكي . وكان « يوهان » هذا قوى الشكيمة مدرب الإرادة صلب الرأي يتحكم في عواطفه ويحرص على التقاليد الموروثة في الآداب والأخلاق .

وقد تزوج بابنة عمدة مدينة فرانكفورت ، وكانت وافرة الذكاء ، متوقدة الشهور ، واسعة الخيال ، كريمة الخلال . فورث « ولفانج » عن أبيه الحزم والخضوع للنظام واحترام التقاليد والشرائع الموضوعية وتحكيم العقل والإرادة في ظروف الحياة وملايساتها . وورث عن أمه مرح الطبع وقوة الخيال واتقاده ، ولباقة الحديث وحسن سبك القصص وروايتها .

كان « ولفانج جوته » بكر والديه ، وقد رزقا من بعده خمسة أولاد ، مات أربعة منهم ، ولم يعمر غير الفتاة « كورنيليا » التي

أحبها أخوها حباً جماً ، حتى صار فيما بعد يستودعها أسرارها ،
ويدلى إليها بآماله وأحلامه . وقد تزوجت بصديق أخيها
« شلوستر » وماتت سنة ١٧٧٧ .

وقد عنى والد « جوته » بتربيته أولاده على طريقته العنيفة .
من ذلك أنه كان يعودهم منذ حداثة سنهم على النوم منفردين
كل واحد في مخدعه ، غير حافل بما يعتريهم من خوف في رهبة
الظلمة الخالكة فإذا أحس أحدهم بالخوف وبكى لم يجد ملجأ
لحويله . وإذا حدثته نفسه بالهرب من غرفته الى حيث يجد
الطمأنينة والأمن بالقرب من أمه أو مربيته رأى والده واقفاً له
بالمرصاد ، يأمره بالعودة من حيث أتى .

وقد خفف وطأة هذه التربية القاسية على (ولفانج) الصغير
حنان أمه وعطف جدته لأبيه ، وما كانت تجزله له من الهدايا .
ولعل أبعدها أثراً في نفسه لعبة تتألف من شخص صغيرة بعثت
في ذهنه فكرة المسرح والتمثيل .

وتوفيت هذه الجدة في سنة ١٧٥٥ وأراد والده إصلاح المنزل
الذي يسكنه ، فانتقل الفتى وأمه إلى منزل جده لأمه . وهكذا
تخلص بعض الشيء من رقابة والده . فسلاماً على ساعات الدرس

الطويلة ، وبعداً عن الكتب والاعتكاف في المنزل كأنه سجن
رحب ، وما أحلى المرح في شوارع المدينة وأسواقها في زمرة من
الأخدان ، يطوفون بالأوساط الحافلة بالناس ، أو يتسلقون أسوار
المدينة ويشرفون على الفضاء الواسع والحدائق الغناء .

على أن هذه الحياة المرحية لم يطل أمدّها ، لأن المنزل لم يلبث
أن تم إصلاحه ، فعادت الأسرة إليه ، وعاد «ولفانج» إلى حياة
كلها جد وصرامة . وكان والده يراقب بنفسه تعليم ابنه ويشهده
في ساعات الدرس والتحصيل . وقد تعلم الفتى على حداثة سنه
اللاتينية واليونانية والعبرانية والفرنسية والإنكليزية والإيطالية
فضلاً عن أصول لغته ، ودرس التاريخ والجغرافيا وعلم النبات
والحساب وأصول الدين . والرسم والموسيقى . وكان يشعر بعقله
يتفتح وذهنه يتقد ، بين هذه المعارف الشتية ، فصار يقبل
عليها في شغف ورغبة .

ولم يكد يبلغ الخامسة عشرة من عمره حتى صار ينظم الشعر ،
وحتى وضع قصة ينتمي أشخاصها إلى أمم مختلفة يتكلم كل واحد
منهم بلغة بلده . وعشق وقتئذ فتاة أطلق عليها اسم «مرجريت»
في كتاب ذكرياته «شعر وحقيقة» فحملته الفتاة على معاشرة

جماعة من الشبان الأفاقين الذين كانوا يبيعون شعره وينفقون ثمنه في شرب الخمر ، وكانت « مرجريت » خير هؤلاء الرفاق ، جميلة الوجه ، رقيقة الشعور ، تم عيناها عن طيبة قلب ونقاوة وجدان ، واعلمها هي التي وصفها في قصة « فاوست » ، ويروى أنه شهد معها حفلة وطنية بمدينة فرانكفورت . ولما افترقا ضمته إليها في قبلة طويلة كانت الأولى والأخيرة ، لأنه اكتشف في صباح اليوم التالي أن أولئك الشبان كانوا عصابة من المجرمين الفاسدى الأخلاق .

وعرف والده بأخبار ابنه ، فأرسله الى « ليبزيج » في شهر سبتمبر سنة ١٧٦٥ ليتم دروسه في جامعته ، فما لبث أن عافت نفسه الدرس والتحصيل في محيط علمى خاص ، فصار ينشئ المجتمعات العامة والأندية ، وصار يزور من يستزيره ولما رأى حفاوة الأوانس به وطوافهن حوله أخذته موجة من التهمك المرير أبعدتهن عنه ، وأغلقت في وجهه أبواب المجتمعات وتحامته الأسر . فأكب على نظم الشعر ، ووضع مسرحيتين حذا فيهما حذو القصص الفرنسية .

كان « جوته » قد بلغ سن الشباب ، وكان مستطيل الوجه ،

متناسق الملامح بالرغم من طول أنفه ، وضياء الجبهة ، كستنائي الشعر ، ذا عينين سوداوين تشعان ذكاء ، وكان ذا جرأة في محادثة النساء ومطارحهن أحاديث الهوى .

وقد اتصل بمدينة (ليبرزيج) بفتاتين ، كانت إحداهن « كاترينيت » أو « آنيث » كما كان يسميها ، وهي التي أوحى إليّ رواية عنوانها « بدوات العاشق » ، « وكانت الثانية » « فريدريكه اوزر » ابنة رسام ماهر صحبه « جوته » حيناً واستفاد منه فهم معاني الجمال الكامنة في الفن اليوناني ، من بساطة في الشكل وشبه للطبيعة .

أما الأولى فقد بادلت « جوته » حباً بحب ، ولكن الثانية أصغت إليه في ملل ظاهر ، ولم تشجعه على الاسترسال في هواها . وفجأة أصيب جوته في شهر يوليو سنة ١٧٦٨ بنزيف حاد كاد يقضى عليه . فعاد إلى مسقط رأسه حيث ظل يعالج نفسه عاماً كاملاً حتى شفى من دائه . ثم سافر بعيد ذلك إلى مدينة « ستراسبورج » في آخر مارس سنة ١٧٧٠ ليتم دروسه في جامعتها الشهيرة .

كانت هذه المدينة في ذلك العهد ملتقى شتى الطرق

الأوربية ومختلف المذنبات ، وكانت خاصة مسرح صراع عنيف بين مدينتين : الجرمانية واللاتينية . وكان يقصدها عدد غير قليل من كبار الكتّاب المفكرين ، وقد تعرف « جوته » إلى أحد هؤلاء المفكرين الذي كان له أبعد الأثر في حياته ، وهو « هردر »

كان « هردر » كاتباً أدبياً وافر الاطلاع على الأدب الانكليزي ، وكانت له نظريات بعيدة في تاريخ الإنسانية من ناحيتي الفلسفة والفكرة فاستفاد « جوته » من صحبته . وهو الذي أوحى إليه أن يدرس أدب « أوسيان » و « شكسبير » وحمله على مطالعة التوراة وهوميروس ، فلم يكف « جوته » يسمع لنصائحه ويعمل بها حتى شمر في قراره نفسه بثورة جياشة على الأدب القديم ووسائله الموروثة ، إلا أنه تهيب أن يستسلم إليها . على أن إقباله على الدرس والمطالعة لم يكن ليحول بينه وبين حياة المرح والطرب ، فقد اكتمل شبابه وصار يغشى أماكن اللهو ودور الرقص ، وقد تعلم الرقص على أستاذ فرنسي كانت له فتاتان أحبتاهما تلميذ والدهما . وأبصرته مرة كبراهما يقبل الصغرى فلذعتها الغير فضمته إليها في شدة وقالت له والدمع

يتفرق في عينيها : « أعرف أنى فقدتك إلى الأبد » ، ثم قالت لأختها : « ولكنه لن يكون لك » ثم قبلته فمألفم وقالت : « وأما الآن فاحذرا عنتي ، ويل للتي سوف تقبل هاتين الشفتين من بعدى » ، فكان ذلك سبباً لقطع صلاته بأستاذة وابنتيه .

ويظهر أن هذا الحادث نبهه في نفس « جوته » أن من الواجب عليه أن يكون قوى الإرادة ليمتثل على جهاج العواطف . وقد تبع في ذلك طريقة طريفة : كان يمقت الصخب والضجيج ، فصار يسير مع الجنود في حفلاتهم العسكرية ، ويمشي قريباً من جوقة الموسيقى الحافلة بالطبول والزمور ، وكان يصاب بالدوار إذا نظر من عل ، فصار يصعد إلى أعلى قمة في كاتدرائية ستراسبورج ويعود نفسه على النظر من خالق . وكان يشعر أحياناً بخوف وذعر ، فطفق يزور الكنائس والمقابر ليلاً . وكانت أعصابه ضعيفة واهنة ، فشرع يذهب إلى المستشفيات ويشهد العمليات الجراحية .

ثم شاء أن يزور مناطق المعادن ومقاطعة السار ، فطاف بها وكان أن حل ضيفاً في قرية « سيرنهم » على قسها فأحب وسطى بناته واسمها « فريد يريكه » فكان حبه سبباً في كثرة

تردده على القرية حتى أحبته الفتاة ، وكان يخشى عليها لعنة ابنة
أستاذ الرقص إذا باح لها بهواه ، ولكن للمواطف قوة لا تحول
دون ظهورها لعنات السماء والأرض . فاندفع في تيارها حتى
أصبح وإياها حبيبين يرحان في سعادة وهناء .

وكان الحب الذي يفعم قلبه يفيض شعراً على لسانه . وكانت
الطبيعة التي كشف له « هاردر » عن مفاتها تبرز بإلهامه فتزيد
في إرهاف إحساسه وصدق تعبيره . ومن أجل قصائده التي
نظمت في ذلك العهد « أنشودة مايو » .

ولكنه شعر بعد لأي أن حالته مع الفتاة قد أصبحت
مرعبة ، وأن أهليها ينزلونه منها منزلة الخطيب ، وكان الشتاء قد
أخذ يتوارى أمام الربيع الذي يعطر بشذاه الرياض والجداول ،
وكانت الفتاة قد انتابها مرض ألزمها الفراش شهوراً ، فظل
ردحا من الزمن يتنازعه التردد بين السفر والإقامة . لله تلك
اللعنة ما أشد وطأتها ! وأخيراً استقر رأيه على الرحيل إلى
ستراسبورج في غير عودة ، فودع الحب وأيامه ، وسافر من غير
أن يصارح أحداً بما اعتزمه . وهكذا فعل « فاوست » في قصته

وهي قصة العبقرية . فقد غادر الفتاة في كنيسة شديدة الشبه بكاتدرائية ستراسبورج . وكانت هذه الفتاة مثل «فريد بريكه» ذات عينين زرقاوين وشفائر شعر، ولكن اسمها كان «مرجريت» .

وفي ستراسبورج قدم «جوته» أطروحته لكلية الحقوق في ٦ أغسطس سنة ١٧٧١ ليظفر بدرجة دكتوراه فرفضت ولم يفز بغير شهادة الليسانس ، ولكن العالم لم يأبه للفرق بين الشهادات ومنحته لقب دكتور .

وهكذا قفل جوته عائداً إلى فرانكفورت ولكن «فريد بريكه» كادت تموت . . .

ولم يلبث جوته بعد عودته إلى مسقط رأسه أن قيد اسمه في سلك المحامين يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٧٧١ وزاول مهنته الجديدة فترافع أمام المحاكم في أسلوب نغم واندفاع جري . .

ولكن الأدب ظل يستهويه . فما لبث أن انقطع عن المحاماة وعاد إلى مطالعة قصص شكسبير، وشرع في تأليف أولى مسرحياته

الدرامية ، وعنوانها « الفارس ذو اليد الحديدية » ونشرها سنة ١٧٧٣ ناسجا فيها على غرار قصص الشاعر الإنكليزي الكبير . وشاء أن يمثل فيها بعض أصدقائه ، وأن يصور بعض مواقفهم ، ولكن القصة كانت ضعيفة في مجموعها ، سواء من ناحية التأليف أو التمثيل ، بالرغم من عنف بعض مشاهداتها .

آلام ورثر

كان «يوهان جوته» يطمع في أن يرى ابنه «ولفانج» مستشاراً مثله ، وتتوق نفسه إلى أن يجده في عداد كبار رجال القانون . لذلك لم يرض عن اشتغاله بالأدب ، وفكر في وسيلة تمكنه من تنقيره منه وترغيبه فيما قدره له . فقاده تفكيره إلى إرساله مدينة « درامستاد » ليطمرن على الأعمال القضائية في محكمة «وتزلار» العليا ، ولم تكن ثم محكمة كهذه المحكمة تستطيع أن تباعد بين الشاعر وبين الحمامة ، فقد نفشت الرشوة بين أعضائها ، وتراكت القضايا ، حتى اضطرت كل المقاطعة أن تنفذ إليها مندوبين يستعجلون النظر في قضايا رجال مقاطعاتهم .

وصل ولفانج جوته إلى « درامستاد » في منتصف شهر مايو سنة ١٧٧٢ على أن يعيش في رعاية إحدى قريباته وتحت إشرافها . وحدث أن رافقها في ٩ يونيو من تلك السنة إلى مرقص أقيم في غابة بالقرب من المدينة ، وقد دعت تلك السيدة آنسة تدعى « شارلوت بوف » ابنة رئيس الشرطة لتشهد معهما تلك الحفلة ،

فأعجب « جوته » الشاب بعينها الزرقاوين ووجهها البسام ومظاهر النشاط البادية على جسمها وفي حركاتها .

وكانت الفتاة كبرى إخوتها وعددهم أحد عشر ولداً ، وقد توفيت والدتها ، فكانت تشرف على العناية بهم وعلى إدارة منزل والدها ، وقد جعلتها هذه المسؤوليات الصعبة ذات حزم وجد ، تتحكم في إرادتها وعواطفها ، كما تتولى تربية إخوتها ، وقد استنفدت مهام المنزل كل وقتها حتى لا تجد من الفراغ ما يمكنها من المطالعة ، وكانت إلى هذا وذاك مخطوبة إلى سكرتير مندوب مقاطعة « بریم » لدى المحكمة العليا واسمه « كسترن » ، وكان مثلها يعمل في جد وإخلاص .

وزارها « جوته » في غد اليوم الذي تعرف بها فيه ، واستطاع أن يكتسب ود أبيها وإخوتها ، بما طبع عليه من حيوية وثابة وظرف معاشرة ، وبما أوتيته من لباقة في تصريف الحديث ومهارة في اكتساب القلوب . ولم يلبث أن صار من أصدقاء المنزل ، يقص على صغار إخوتها الحكايات الطريفة ، ويساعد الناشئين منهم على فهم دروسهم ، أو يضرب لهم على البيانو أنغاماً مختلفة . وكان يتوود إلى شارلوت بشتي الأساليب .

وكان « كسترن » يخشى هذا المزاحم الخطر ، وأنى له أن يحارب به في سرعة خاطره وظرف حديثه ، وهو الذى يقضى يومه عاملاً كاداً ، فإذا جاء الليل لبث منهوك القوى خائر العزيمة . ولما صار يشعر بأنه يشقى في حبه شكاً إلى خطيئته ما يخامر قلبه من خوف ، فطمأنته على حبها له ، وأزالت ما كان عالقاً في نفسه من ريبة ووجل . وشاعت بالمدينة أخبار زيارات « جوته » لشارلوت وانقطاعه عن قريبته زوج المستشار . ولقيه مرة صديقه « ميروك » وكان صحفياً أديباً ذا طرق شيطانية حتى كان « جوته » يلقبه بمفيسنو ، إنه لقيه في تلك المدينة وعرف أخباره مع شارلوت كما عرف شارلوت نفسها ، فنصح له بأن ينقطع عنها بعد ما جمع في دخيلة نفسه كنوزاً ثمينة من شتى العواطف والأحاسيس ازداد بها خياله اتساعاً واكتسب بها قلبه ثروة ، وأوحى إليه أن يدون هذا جميعه ، لأن الدواء الشافى من الحب لصاحب العبقرية الكبيرة هو أن يدون العواطف المضطربة في قلبه ويصوغها في قالب فنى بارع .

فقرر جوته السفر يوم ٢٨ أغسطس ، وهو يوم ذكرى ميلاده وميلاد « كسترن » ، ثم أرجأه أسبوعين . وأخيراً وطد عزمه

عليه وتشدد ، وودع صاحبيه ، شارلوت وخطيبها ، مساء في الحديقة ، وكان وداعاً مؤثراً تحدث فيه شارلوت عن أثر ضوء القمر في نفسها ، وارتمى جوته عند قدمها جاثياً يقبل يديها ويذرف الدمع السخين . وعند ما غادر المنزل قال للخطيبين : « سوف نلتقى ، إنى مغادركم طوع إرادتى فلا أقول إن فراقنا لا لقاء بعده ، الوداع يا شارلوت ، الوداع يا ألبير سوف نلتقى » ، فردت عليه شارلوت مبتسمة « غداً على ما أظن » ثم درجت إلى منزلها في ثوبها الأبيض ، فمد جوته نحوها ذراعيه كأنه يحاول أن يمسك خيالاً .

وغادر جوته مدينة وتزلز في الغد ، كما قال ، سعيداً بأنه استطاع أن يضحى بنفسه وحبه في سبيل صديقه « كستنر » راضياً بانتصاره على كبريائه وغريزته . فإذا وصل إلى مدينة « كوبلنس » أقام فيها أياماً ضيقاً على « صوفي دي لاروش » ، وكانت أديبة وجدانية على جانب من الأناقة والظرف والجمال بالرغم من تقادم سنها . لم يكد « جوته » يحل في ضيافتها حتى أحب « مكسيمليان » كبرى بناتها ، وقد أحبها بينما هو لم يبرأ بعد من حب شارلوت ، وقد قال في هذا الصدد في مذكراته : « إنها عاطفة لذيذة أن

نشعر في قلوبنا بحب جديد قبل أن نشفى من الحب القديم .
وتابع جوته سفره إلى فرانكفورت فوصلها في شهر أكتوبر،
وفي شهر نوفمبر جاءه خطاب من « كستنر » يقول له فيه : إن
« جيروزاليم » ، وكان شاباً وسيم الطلعة ، إنه انتحر بطلق نارى ،
لأنه أحب إلى حد اليأس سيدة جميلة . فأعظمه هذا النبأ لأنه
جاء بالخائنة التى كان يبحث عنها للقصة التى شاء أن يخلد بها حبه
لشارلوت . فسافر لساعته إلى « وتزلر » وشاهد الغرفة التى انتحر
فيها العاشق اليأس ، واستفسر عن حكاية الانتحار كلها ، ورأى
شارلوت وخطيبها سعيدين بجهنما . فقفل راجعاً إلى فرانكفورت
وقد تفتحت جروح قلبه التى لم تندمل بعد ، واضطربت في
كبده نار الغيرة ، حتى صار مسهد الجفن حائر اللب ، يداعب
في ليايله الطويلة خنجراً يود أن يطعنه في أحشائه فيجبن دون
ذلك . وبلغه في ربيع سنة ١٧٣٧ نبأ زواج شارلوت وسفرها إلى
مقاطعة هانوفر .

ولكن هذا الغرام القديم على قوته لم يحل دون اتصاله
بمكسيمليان ومطارحتها الغرام في رسائله إليها .
وكان أن تزوجت « مكسيمليان » في شهر أكتوبر من

يقال غنى يدعى « بيير أنطوان برنتانو » من سكان مدينة فرانكفورت فانتقلت إليها ، وهكذا قاربت التقادير بينها وبين جوته . وقد رحب زوجها به عندما زارها ، لأنه رأى في هذه الزيارة مفخرة له . وكان « جوته » قد اشتهر بين مواطنيه وصار موضع تقديرهم وحنافوتهم ، على أنه بعد أن تعددت الزيارات لاحظ الزوج سوء أثرها في زوجته ، وشعر أنها ابتدأت تتغير عليه ، وأنها صارت تصغى لأحاديثه شاردة اللب ، في حين أنها تستقبل جوته في اهتمام بارز ، ينم عليه انبساط أسارير وجهها ولمعان عينيها . فاضطر الزوج أن يظهر الجفاء لجوته ، وأن يصارح زوجته بما يجول في نفسه ، فسألت صاحبها أن يبعد بين زيارته التي كانت يوماً فيوماً . لقد تمت إذن في قلب الكاتب الكبير قصة آلام ورتر ، ولم يبق عليه غير صياغتها ، فعكف على كتابتها حتى أتمها في أربعة أسابيع ، حتى إذا أتمها شعر بأنه شفى من لواعج الغرام وآلام الغيرة . أو كما قال في مذكراته : « كان إحساسي بعد ذلك كإحساس من يغادر الكاهن بعد أن اعترف بخطاياہ ، فقد رأيتني خفيف العبء مطمئناً إلى نفسي ، شاعراً بأنى أستطيع أن أعاود حياتي من جديد » .

مزج جوته في قصته بين شخصيتي «شارلوت» و «مكسيمليان» من ناحية ، وبين شخصيتي «كسترن» و «برنتانو» من جهة أخرى، فاستعار لشارلوت عيني مكسيمليان السوداوين وشيئاً من أخلاقها وثقافتها ، لأنه جعلها تطالع «كلو بستوك» و «روسو» ، واستعار لكسترن غيرة برنتانو وطبيعته الشعبية . أما ورتز نفسه فقد ذكر جوته أنه حاول أن يصف في شخصه «شاباً ذا فكر ناقب وإحساس عميق أضاعته أحلامه الوثابة وأنهكه التفكير حتى ابتلى بحب تاعس فانتحر» .

مثل جوته في «ورتز» شاباً خيالي النزعة ، ثائراً على أحكام القدر ، عطشاً للملذات المرهفة الأنيقة ، فخوراً بإحساسه حتى لا يكبح له جراح ، ضعيفاً عن التغلب على أهوائه . والقصة مكتوبة في شكل رسائل يبعثها «ورتز» إلى بعض أصدقائه ، بحيث لا تظهر غير شخصيته ، وبحيث نتبين الشخصيات الأخرى من خلال حديثه عنها . وهو يذكر في مستهلها حبه لفتاة وعجبه لها وسفره إلى حيث يجد السلى والعزاء في وحدته ، ويصف إعجابه بالربيع ، وازدهار الأشجار والغابات ، ويعترف بأنه ذو طبع متقلب يعده للحزن العميق أو الفرح العظيم ، وأنه مضطرب

إلى مداورة قلبه كما يلاطف الطفل المريض ، وأنه يشعر في أوقات غبطته أن في نفسه قوى مهمة وهي جميعها أخلاق نجدها في « جوته » الشاب .

بينما كانت تناوب « ورتر » هذه الأفكار والعواطف عرف فتاة اسمها « لوت » ، وهو صغير اسم شارلوت ، فأحبها ، وزاد في حبه أن في أخلاقها مزايا يشعر بأنها تنقصه ؛ منها تحكيم العقل وهدوء النفس وطمأنينتها . ولكنها مخطوبة إلى شاب يدعى « ألبير » ، وقد رضى هذا الشاب بصداقة « ورتر » ، أما هو فلما أبى أن يرضخ لأحكام القدر استولى عليه حزن عميق دفع به إلى نزهة غريبة طويلة ، فهو يلتحق بإحدى السفارات ، فلا يطيق العمل فيعود إلى حيث « لوت » ، كما تبحث الطبيعة بالفراشة إلى حيث النور . وينزعج « ألبير » للملازمة « ورتر » لخطيبته . وأما الخطيبة فقد أحبت « ورتر » وألقت بنفسها مرة بين ذراعيه ، ثم انتزعتها منها وهي تضطرب حباً وغضباً ، ثم أقسمت بأنه لن يراها . فإذا أشرفنا على نهاية القصة طالعنا صفحات مؤثرة ، لعلمنا من أبلغ ما كتب « جوته » . وصف فيها كيف استقر رأى « ورتر » على الانتحار فرغب إلى « ألبير » أن يرسل إليه بطبنتجته ، بحجة

أنه على سفر وأنه بحاجة إليها ، وقد تناول هذا السلاح من يد « ثوت » بعد أن مسحت الغبار العالق به ، أخذه « ورتز » من يد التي يسميها « قديسته » وقبله كأنه يتناول الكأس البادرة التي سيشرّب منها نشوة الموت .

وقد تأثر جوته في كتابة قصته بأدباء عديدين . فوضع القصة في رسائل مأخوذ عن « ريكاردسون » و « روسو » . وقد نهج في قوة الأسلوب و بلاغته وما فيه من تبديل وتحوير نهج قصة ألمانية تقدمت قصته بسنين ، عنوانها « ستور أند رانج » أي زمان العاصفة . بل يقال أن « ورتز » نفسه يشبه في شخصيته أبطال هذه القصة التي تعد في الأدب الألماني فاتحة عهد جديد . ظهرت قصة « ورتز » سنة ١٧٧٤ فأحدثت دوياً شديداً وثورة عنيفة في الأدب . وصار « جوته » وهو في الخامسة والعشرين من عمره أشهر كتاب ألمانيا . وقد ترجمت إلى الفرنسية بعد ظهورها بعامين ، و إلى الانجليزية في سنة ١٧٧٩ ، ثم لم تلبث أن ترجمت إلى مختلف اللغات الأوروبية الأخرى ، وأسرع الناشرون إلى جوته يطلبون منه قصصاً أخرى على طرازها فأجابهم : « اسأل الله أن لا أعود أبداً إلى حالة عقلية أجدني

مضطراً فيها إلى تأليف كتاب كهذا .

ولعل من الخير أن نشير إلى نقد مريز وجه إلى قصة « آلام ورتز » يدور حول تحبيذ الانتحار والحض عليه . وقد قالت « مدام دي ستال » : إن ظهور هذه القصة سبب من حوادث الانتحار أكثر مما سببته النساء الجميلات . وهو قول خاطئ ، لأن الكثيرين من مؤرخي الأدب أجمعوا على أنه لم تعقب ظهور القصة حوادث انتحار ، وأنه ليس فيها تحبيذ له . فقد وصف « جوته » « ورتز » بأنه شاب لا عمل له غير السير وراء أحلامه ، وأن خياله الواسع وإحساسه الفياض كانا يطغيان على عقله وقواه ، وأنه كان ذا قلب مريض يعذبه عذاباً يلذه ويرتاح إليه ، وأن روحه كانت تبحث عن الشعور الدقيق ، وكان يروق لها أن تسمو إلى أعلى قمم الشاعر لتنظر منها إلى أعماق القلب السحيقة ، فتحس بدوار كالذي يحسه من يرقى إلى علو شاهق ويتطلع إلى المنحدرات العميقة ، فلا غرو إذا لم يجد شاب كهذا راحة في غير الموت .

وقد شاء جوته أن يضرب به مثلاً للموعظة والتذكير بتوجه بهما إلى الذين يرغبون في اتباع نزوات نفوسهم ، وفاقاً لشهوات قلوبهم ، لا يأبهون لإرشادات العقل ، ولا يعنون بالتوازن بينه

وربين العاطفة ، وأراد أن يدل على إفلاس القلب البشرى إذا سيطر على الحياة وشرع لها سبل المعيشة .

وإنما انطبع أثر ورتز في نفوس قرائه من ناحية العاطفة وفهم الطبيعة والتمتع بروائعها وبدائعها . وولد فيهم ما أسموه أيامئذ بالورتيرسم ، وقد بلغ هذا الأثر إلى حد أن الشبان أخذوا يقلدون ورتز في ارتداء الثياب الزرقاء والقبعة السوداء .

٣

في وعمار

زار في سنة ١٧٧٤ مدينة فرانكفورت شخصان غريباً
الأطوار، تأثر جوته بتعاليمهما على ما فيها من اختلاف النزعات .
كان أولهما « لا فاتر » عالم ديني متصوف، وثانيهما « بيزادو »
أستاذ في علم التربية. وكان الأول تقياً صالحاً وديع القلب، يحاول
أن ينشر بين الناس تعاليم الدين الصحيحة ، وكان الثاني شرس
الأخلاق ، يحب الجدل العنيف ، وينشر عقيدة جان جاك روسو
في حب الإنسانية والإيمان بالطبيعة . وقد أحس جوته بأنه موزع
بين هذين الشخصين ، يود لو أنه ضمهما معاً في دخيلة نفسه ، ولكن
رجل الإنجيل لم يظفر بنفسه ، وداعية « الانسيكلوبيديا » لم
يستأثر بعقله . وعند ما سافرا من فرانكفورت تبعهما جوته أياماً
ثم انفصل عنهما ، ولحق بالفيلسوف « فريديريك جا كوبي » بمدينة
كولونيا ، ودرس عليه فلسفة اسبينوزا ، ذلك الفيلسوف الذي
كان مطمئناً إلى مواهبه اطمئنان جوته إلى نفسه . وكيف ينكر

الإنسان عظمة نفسه وهو يشعر أنه قبس من الطبيعة الإلهية ، وأنه يساهم في مقدراتها على التجديد والخلق .

لعل جوته لم يشعر بعظمته في طور من أطوار حياته مثل شعوره بها في ذلك العهد ، بعد الفوز الذي أصابته قصته « آلام ورتر » والرسائل العديدة التي صارت ترد إليه . فأخذ يكتب من جديد ، ونشر قصة « كلافيجو » مقتبسة من ذكريات « بومارشيه » وذكرياته ، فمثل فيها نفسه وصديقه « ميرك » ، ويقال أن خير ما فيها ما ترجمه في أمانة عن الأصل الفرنسي . ثم شرع في كتابة قصص أخرى ، منها « فاوست » و « محمد » و « بروميت » و « اليهودي التائه » ، وحاول درس عظماء التاريخ . ولم ينقطع عن نظم الشعر ومجادلة الأفكار والآراء يتناولها من طرفها القصصيين ، كما فعل فاوست في قصته . فهو تارة غريسة شيطان ملحد متهم قاس ، وتارة أخرى خاضع لعبقرية متألقة نهضة ، تسير إلى قمم الإيمان والتصوف . ولم تكن حياته الخاصة إلا صورة لهذا التناقض الفكري ، فقد أخذ فيها بلون غريب شاذ غير متناغم لقواعد العقل وقوانين الحياة ، وعاد إلى مغارة الجنس اللطيف ، كما كان يفعل من قبل .

وقد حدث في أوائل سنة ١٧٧٥ أن سمع فتاة تدعى « ليلي شونمان » تضرب على البيانو ، فأحبها ولازمها ، وصار يرسلها إذا انقطع عنها . وقد كتب إليها في إحدى رسائله أنه يشعر بازدياد حاجته لشخصيته ، فهو حيناً رجل المجتمع الذي يتأنق في ثيابه ويتظرف في أحاديثه ، وحيناً آخر رجل الطبيعة يرتدى الثياب الخشنة ، ويطوف الحقول ويشعر بقرب الربيع ، ويعيش في دخيلة نفسه حياة كلها عنف وقوة وعمل ، محاولاً أن يعبر قدر استطاعته عن عواطف شبابه البريئة بشعر قوى متين ، وأن يضمن قصصه زبدة الحياة وخلاصتها .

ثم خطب جوته ليلي إلى أهلها ، ولكن شيطانه أن يتركه وشأنه ، لأنه أبداً يلعب به ليدعى قلب من يحبه . فقد كتب إلى صديقه « هردر » في ١٢ مايو سنة ١٧٧٥ يقول : « ظننت أخيراً أني قد أنهيت إلى ميناء السلام والسعادة العائلية ، ولكنني أشعر من جديد بقوة تدفعني إلى البحار العالمة » . وفي ذلك اليوم غادر مدينة فرانكفورت قاصداً سويسرا ، برفقة صديقين له ، ولكنه شعر في طريقه بالحزن إلى خطيبته ، فعاد أدراجه إليها فإذا هي قد تغلبت على حبها تحت تأثير أبيها ، وتغير قلبها عليه ،

وفصمت عرى الخطبة التي كانت تربطها به .

كان يحكم مدينة « وعمار » في ذلك العهد أمير شاب يدعى « الدوق شارل أوجست » . وكان هذا الأمير قد دعا « جوته » لزيارته ، فلم يلب الدعوة وسافر في أكتوبر سنة ١٧٧٥ ، بعد أن طاف بمنزل حميمته وشاهد طيفها من بعيد . وأعله فكر في هذا السفر حين كتب في قصة « إيجمون » يقول : « تندفع خيول الشمس (يعنى التقادير) بمركبة مصيرنا الخفيفة كأنها مسوقة بمهاميز أرواح خفية ، وليس علينا إلا أن نمسك عنانها بأيدي قوية لنحيد بعجلاتها إما يمنة وإما يسرة عن حجر من هنا ومهواة من هناك ، ومن يدرى إلى أين تسير . إننا لا نكاد نذكر من أين جئنا » .

وصل جوته إلى « وعمار » وهي مدينة صغيرة يبلغ عدد سكانها ستة آلاف فقط وكان القصر والحاشية مزيجاً غريباً بين الفخامة والبساطة . فكانت تدير دفة الحكم والدة الأمير « الدوقة إميلي دي ساكس وعمار »

وكان الأمير في الثامنة عشرة من عمره ، مسرفاً في اللهو والشراب والغزل ، على الرغم من زواجه بأميرة شابة ، فصاحبه

جوته في ملامه ، فكانا يقضيان الليل في العبث والشراب حتى ذاع خبرهما وكثر لا يؤمهما .

حاول جوته أن يستفيد من صداقته للأمير ، فسعى لديه لتعيين صديقه « هرذر » واعظاً للقصر ، فعينه غير آبه باحتجاج أهل التقوى من رعيته . أما جوته نفسه فقد تقلب في مناصب الدولة ، لأنه عين أولاً مستشاراً مساعداً للمجلس الخاص ، ثم مستشاراً خاصاً للإمارة ، وفي سنة ١٧٧٦ عين مديراً للمسرح ، وفي سنة ١٧٧٧ رئيساً لمجلس الهندسة الموكل اليه إعادة بناء القصر ، وفي سنة ١٧٧٩ مديراً لإدارتي الحرب و بناء الجسور (الكباري) ، وأخيراً في سنة ١٧٨٢ مديراً للمالية . وهكذا ارتقى عاماً فعاماً سلم الوظائف خير إمارة « وعمار » .

ولكن هذه الوظائف وعطف الأمير تركا في قلبه فراغا لا يملؤه غير الحب ، وقد وجد عند سيده في الثالثة والثلاثين ، أي أنها تكبره بسبع سنوات تدعى « شارلوت ، دي ستين » زوج رئيس اسطبلات القصر ووصيفة شرف الدوقة الوالدة ، ولم تكن هذه السيدة على قسط وافر من الجمال ، ولكنها كانت ذات مواهب عقلية ممتازة وثقافة عالية وإرادة قوية بحيث استطاعت

أن تفتن جوته وأن تسيطر على عواطفه الجامحة فتجعلها منتظمة منسقة . ولذلك كثر جدل المؤرخين في طبيعة حب جوته لها ورأى الكثيرون منهم ، وفي طليعتهم أميل لودويج ، أن هذا الحب بقي من نوع « الهوى العذرى » .

وعلى الرغم من أن العاشقين كانا يتلازمان النهار كله وشطراً من الليل فإن سكان مدينة (ويمار) ، على ما اشتهر عنهم من حب النومة والتدخل فيما لا يعنهم ، ظلوا يعتقدون بطهارة ذلك الحب .

وهكذا قضى « جوته » تسع سنوات بمدينة ويمار موزعاً بين المناصب الرفيعة التي القيت إليه مهامها ، والملاهي التي كان يلهو بها مع الأمير ، وحبه اشارلوت دي ستين ولكن هذا جميعه لم يلهه عن الأدب والعلم . وإذا صح أنه لم ينشر كتاباً في ذلك العهد إلا أنه كتب مسرحية « إيفيجينيا » نثراً ، وابتداء مسرحية « له تاس » ، واشتغل في تأليف قصة « ولهم ميستو » ، ونظم شعراً كثيراً ، ودرس بعض العلوم كالطبيعة والتحليل والنبات وبذل في تحصيلها جهداً وفيراً وذكاء وقادراً ، واستفاد من المناصب التي تولاهها ملاحظات جديدة . وهكذا صار عقله يتغلب شيئاً فشيئاً

على عاطفته ، حتى صار يشبه نفسه بربان باخرة جرىء يرى
باخرته الموبة بين الرياح والأمواج .

ولكن هذا العمل الطويل أتعبه وأضناه ، ولعل ذلك الهوى
العذرى الذى كان يعذبه بين حين وحين زاد فى ضعف أعصابه ،
فاستأذن بالسفر الى أنترلا كن للاستجمام ، وإنما كان يقصد فى
حقيقة الأمر الهرب إلى أبعد منها . وهكذا بعد خروجه من « ويمار »
سافر يوم ٣ سبتمبر سنة ١٧٨٦ متخفياً باسم « جان فيليب مولر »
تاجر من « ليمزيح » وانقطعت أخباره عن الأمير .

ويقال أن هذا الأمير كان يعرف عزم « جوته » على الهرب
وكان راضياً عنه ولكنه كان يجهل ، كما كانت مدام دى بستين
تجهل ، إلى أى مصير يتجه .

إيطاليا

كان جوته يقصد من رحلته زيارة إيطاليا والاستمتاع بما فيها من آثار فنية ، لذلك لم يكد يجتاز حدودها حتى أخذ يهتم بالمظاهر الفنية البارزة في كنائسها وقصورها ومتاحفها . ولما انتهى إلى روما حل ضيفاً على الرسام « تشبين » وطفق يطوف المدينة كلها لمشاهدة آثارها الرائعة . وقد أقام فيها أربعة أشهر محتفظاً بتذكره ، رافضاً قبول الدعوات والولائم ، منصرفاً إلى التأمل والدراسة .

أحدثت هذه الأشهر التي صرفها جوته في الدرس تطوراً كاملاً في عقله وفنه . كان في أوائل حياته يدين بمذهب الأتقياء من سكان فرانكفورت ، ويرضى بمبادئ المسيحية التي ينشرها « لافاتير » ، ثم تحول إلى الفلسفة الدينية التي تلقاها عن « جاكوبى » ومذهب وحدة الوجود (بانتييسم) الذي أخذه عن « سبينوزا » ، ثم أخذ هذا المذهب في ذهنه شكلاً علمياً بعد أن درس العلوم الطبيعية . حتى إذا حل بإيطاليا صار لا يعنى بغير

الفن القديم ويصدف عن كل ما خلفته المسيحية من آثار بارزة .
 كان جوته قد تخلص من مذهب الابتداعية (رومانيسم)
 والطمأن إلى عقله وقلبه ، وكان في طمأنينته هذه يقابل بين الفن
 اليوناني القديم الذي يمثل الراحة والطمأنينة في أسنى شكل
 وأروع مظهر ، وبين الفن الفوطى الذى رآه من قبل في كاتدرائية
 ستراسبورج وغيرها من الكنائس ، وقد تمثلت فيه معانى التضحية
 وصراخ الأجسام المعذبة بين الفن اليونانى الصاعد منتصراً من
 الأرض إلى السماء ، وبين الفن الفوطى المسيحى الخاضع لمذهب
 مسنون للعقل والحياة .

وقد اختار جوته وهو في حالته النفسية والعقلية التى أشرنا
 إليها الفن اليونانى . وقد كتب مرة : « إن النسيم الذى يهب من
 القبور القديمة يحمل عبقاً كأنما اكتسبه من حديقته حافلة بالورد
 إننا لا نجد فيها فرساناً ساجدين فى خشوع انتظاراً لبعث سعيد .
 لقد مثل الفنان فيها الرجال ببساطة ، فلا هم يضمون أيديهم ،
 ولا هم ينظرون إلى السماء ، لكنهم ممثالين لما كانوا عليه
 طيلة حياتهم » .

أقام جوته فى روما شهوراً ، ثم طاف ببلاد إيطاليا حتى صقلية

واستقر ردحا من الزمان بمدينة « نابولي » حيث رضى بأن يعود إلى الحياة العامة فيحضر الحفلات ويشهد المآدب . وعاد إلى روما وهو يحس في دخيلة نفسه بنشاط بارز ، فأخذ يعنى بفن الرسم ، وإذا هو لم يبرز فيه غير أنه كسب أدبه دقة ملاحظة وقوة وصف ، ظهر فيها نظمه في تلك الحقبة ، ثم جمعه في ديوان أسماه « أغاني رومانية » .

ويقال أنه كان لعلاقته الغرامية بفتاة رومانية تدعى « فوستينا » أثر في انفراج الأزمة التي كان يحس بها في نفسه وأعصابه عندما غادر ويمار . وقد عاد إليها بعد هذه الهجرة الطويلة في أوائل مايو سنة ١٧٨٨ .

من البندقية إلى الحرب

استقبلت مدينة « ويمار » أديبها الكبير في فتور يداخله كثير من الفضول ، وكان سكانها حائقين عليه ، لأنه كان طيلة هجرته يقبض راتبه الضخم وينفقه في بلاد غربية ولا يؤدي عملا يوازيه . وكان قد نصب معين شبابه الذي أوحى إليه شعره الوجداني فحلب به قلوب النساء وسحر عقولهن ، وبينما هو يشهد كيف ينجبون نجمه أمام الجماهير التي لا تفهم تفكيره وفلسفته ، والقوة التي صارت تدعم فنه ، كان يرى أهلة جديدة تسطع في عالم الأدب وتتبعوا مكانه من قلوب النساء ونفوس الجماهير . فشعر في نفسه بوحشة قوية ، زاد فيها أن صديفته القديمة « شارلوت دي ستين » كانت تمشي بخطى واسعة نحو الشيخوخة والذبول ، ولم يزل عنه آلام تلك الوحشة غير فتاة عرفها أيامئذ ، وهي التي صارت فيما بعد شريكة حياته .

كانت هذه الفتاة ، واسمها « كرستيان فيليبوس » ، ابنة موظف سابق في قسم المحفوظات توفي إلى رحمة الله ، وكان لها

أخ يميل إلى الأدب ويبحث عن عمل يكسب به قوته ، فذهبت « كرستيان » إلى جوته ترجوه توظيف أخيها ، فأعجب بشبابها ونضارتها ولبي طلبها وأحبها .

كانت كرستيان من طبقة شعبية ، قصيرة عذبة ، ليست عليها مسحة الأنافة والرشاقة ، وقد ظلت كذلك ، طيلة حياتها ، فلم تستطع أن تسمو إلى طبقة صاحبها ، فشاء جوته أن تظل علاقته بها سرية ، وكيف السبيل إلى ذلك في بلد صغير كويمار ؟ فلم تنقض شهور على معرفته لها حتى صارا حديث المدينة كلها ، وقد رزق منها ابنا يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٧٨٩ كفله في حفلة عماده الدوق « شارل أوجست » نفسه . وقد أراد بعمله هذا أن يحمي صديقه من المجتمع الضيق الذي أخذ يتألب عليه طعنا وتجريحا ، وقد أبقى جوته الزواج بها كي لا يضطرها إلى حضور حفلات القصر حيث تكون عرضة لضحك القوم وتهكمهم .

وقد أذكى حب جوته الجديد في قلبه الشاعرية التي خبا نورها زمنا ، فاستوحى صاحبته بعض أغانيه الرومانية ، مازجا بين صورتها الماثلة أمامه وبين صورة « فوستينا » الماثلة في ذهنه ذاكرآ بين ذراعيها تلك الأنصاب اليرنانية القديمة ، فصار يصفها

في جمال لا يقل روعة عن جمال تلك الأنصاب .

وفي شهر مارس سنة ١٧٩٠ سافر جوته إلى البندقية ليستقبل الدوقة إميلي ، الأميرة الوالدة ، في عودتها من إيطاليا ، فكان يقابل بين هذه الرحلة المقيدة بالتقاليد والمراسم وبين رحلته الأولى الحرة الطليقة . وقد نظم في أثناء هذا السفر ديوان «أشعار البندقية» مازجا في قصائده بين الشعر والفلسفة ، مبديا آراءه في الثورة الفرنسية التي كانت نارها ذاكية أيامئذ .

كان جوته بطبيعته ميالا إلى النظام والسلام ، لذلك نجده برما بالثورة الفرنسية يهاجم رجالها فيما نظمه من شعر في ذلك العهد ، وخاصة في ديوان « أغاني البندقية » .

رغب إليه أمير ويمار أن يرافقه إلى ميدان الحرب التي شنتها الدول أيامئذ على فرنسا ، والتي انضمت فيها مقاطعته إلى سائر المقاطعات الألمانية ، فاضطر جوته إلى مرافقته وقد قص ما رآه في كتاب عنوانه « حرب فرنسا » ، ذكر فيه ما شاهده بنفسه وأهمل ما سواه .

كان جوته يشعر أن الثورة والحرب تخالفان معتقده وآراءه وطبيعته ، فحمل عليهما في نقد مرير في بعض الكتب التي ألفها

فما بعد بعنوان « القفطى الكبير » و « المواطن العام »
و « الثأرون » وهى قصة لم يتم تأليفها . ولكنه عاد بعد ذلك
إلى الثورة الفرنسية فدرس أخبارها فى تفكير حر بعيد عن هوى
النفس ، فأ نصف رجالها فى قصة ظهر الجزء الأول منها بعنوان
« الابنة غير الشرعية » ، وقد وصفها بعضهم بأنها قصة « ملساء
باردة كالرخام » .

٦

قصص

استفاد جوته من رحلته إلى إيطاليا أنه استطاع أن يتم الروايات التي كان قد ابتدأها في ويمار ، واستفاد من عزله في « ويمار » بعد عودته من إيطاليا أنه استطاع أن ينشر مؤلفاته كاملة في ثمانية مجلدات بين عامي ١٧٨٧ و ١٧٩٠ ، وقد ظهر بين هذه المؤلفات غير ما ذكرناه من قبل ثلاث قصص نعرض لها فيما يلي :

١ — « إيجمون »

هي قصة تمثيلية في خمسة فصول ، استمد جوته حوادثها من حياة فارس من فرسان القرن السادس عشر الذين ناضلوا في سبيل تحرير أوطانهم وإنقاذها من نير أعدائها . وكان اسمه « لامورال كونت دي إيجمون » وكان بلجيكيًا ولد بمدينة بروسيل سنة ١٥٢٢ واشترك مع ملك إسبانيا « شارلكان » وخليفته « فيليب الثاني » في عدة حروب ، ثم ترك خدمة هذا العاهل الأخير وانفصل عنه عند ما أخذ يجور في حكم رعيته

وخاصة في بلاد « الفلاندر » التي ينتمى إليها « إيجمون » ،
فأنشأ فيها محاكم التفتيش لإدانة البروتستانت ، وكان أن عين
فيليب الثاني حاكماً على بلجيكا وهولندا أحد أعوانه المشهورين
بالظلم والجور واسمه « الدوق دالب » فاتهم « إيجمون » بالتآمر
على الملك ، ولم تنفع شفاعة أصدقائه ، ولا إقامة الدليل على
إخلاصه ، فأعدم في إحدى ساحات مدينة « بروسيل » سنة
١٥٦٨ ، وصار البلجيكيون ينظرون إليه كأحد أبطالهم الذين
ناضلوا في سبيل حرية بلادهم .

والموضوع كما ترى طريف شائق جدير بأن تستوحى منه
(تراجيديا) رائعة ، وهذا ما فعله « جوته » .

تبتدىء القصة بأن فيليب الثاني لعب من لين « مرجريت دى
بارم » التي كانت تحكم مقاطعات هولندا فشاء أن يولى عليها من
يحكمها بالعنف ويأخذها بالشدة فأرسل بدلاً منها « الدوق دالب »
وكان الملك يخاف زعامة « البرنس دورنج » و « الكونت دى
إيجمون » و يتهمهما بأنهما يمالآن البروتستانت سرّاً . وقد مثل
« جوته » « إيجمون » في صورة خلافة محبوبة ، فجعله معبود
جنوده البواسل الذين قادهم إلى النصر مراراً ، وأمين الأميرة

الإسبانية حاكمة البلاد، وزعيم مدينة بروسيل المطالب باستقلالها،
والمدافع عنها لدى البلاط الملكي. فإذا جاء الدوق « دالب »
رغب « البرانس دورنج » إلى إيجمون أن يهرب مخفياً عن
مسرح السياسة، كي ينسأه الحاكم الخشوم. ولكنه أبى الهرب
من المدينة، فعاش منزوياً في بيت معشوقته « كلارا » وكانت
فتاة من الطبقة البورجوازية، بسيطة الطباع، فضولية، حرة
الأخلاق، مريحة القلب، طيبة النفس، تعجب بحبيبتها أشد
المعجب.

جاء الدوق دالب إلى بروسيل، فعم الخوف سكان مقاطعة
الفلاندر، ولكن الدوق جبن عن القبض على إيجمون، وكان
للدوق ابن يدعى « فردينان » شديد الإعجاب بالبطل البلجيكي،
فرغب إليه أن يتدخل بالصلح بينهما وأن يدعوّه إلى زيارته
في قصره، ففعل الشاب، واطمأن إيجمون إلى الجاس البارز في قوله
وعمله، ظناً منه أن والد فتى كهذا لا يستطيع أن يكون عدواً ما كراً.
وقف الدوق « دالب » على شرفة قصره المنيف القائم على
هضبة تشرف على المدينة ينظر إلى « إيجمون »، وقد امتطى
صهوة خير جياده، وهو يرقى صاعداً إليه، وقد خفق قلب

الدوق جذلاً وحبوراً لأن عدوه سوف يصبح في قبضة يده ، ولم يكذب يدخل « إيجمون » القصر حتى صرخ الحاكم قائلاً : « قدم في رحبة القصر . . . والثانية . . . أغلقت الأبواب . صار في قبضة يدي » ، فإذا مثل « إيجمون » أمامه أخذ الدوق « دالب » يتحدث إليه مدافعاً عن سياسة العنف التي اضطرته إليها الظروف ، محاولاً بهذا الحديث أن يثير نفس الفارس الشريف وأن يحمله على التفوه بكلمات تكون مبررة للقبض عليه ، ولعله كان يبغي منها ما يبرر به ، أمام نفسه وضميره ، جريمة القبض عليه ، وقد كان له ما أراد ، فالتقى القبض على الفارس وأودع السجن وشاع في المدينة أنه سوف يعدم ، فلم يتحرك سكانها لإنقاذه ، لأن الذعر استولى عليهم ، كانوا لا يزالون متأثرين بالعنف مستسلمين للاستبداد ، وحاولت عشيقته « كلارا » أن تستنهض الهمم المتقاعسة ، وأن تخطب في الجماهير داعية إلى الثورة ، فذهبت نداً آتياً عبثاً .

أما « فردينان » ففهم بعد لأي أنه كان ألحوبة في يد والده للوصول إلى مآربه الأثيمة ، وحاول أن ينقذ « إيجمون » ، فأبى هذا عليه ورجاه أن يحمي « كلارا » ويعني بها من بعده ، ولكن

العشيقة الأمينة انتحرت بعد أن يئست من إنقاذ حبيبها حتى لا تعيش بعده ، ثم نفذ حكم الإعدام في « إيجمون » ، فشعر قلب الشاب « فردينان » بالحفيظة على أبيه حتى صار يبغضه ، فكانت هذه الحفيظة خير قصاص للدوق ، وهو الذي لم يختلج قلبه بحب أحد غير حب ذلك الابن .

توفرت لهذه القصة كل العناصر الضرورية للتراجيديا والملايسات والحوادث الخليقة بها . ففيها فارس هام ، وأخلاق نبيلة كريمة ، وفتاة طيبة القلب ساذجة يسمو بها الحب إلى مقام البطولة ، وحاكم جائر غاشم . ثم يسيطر على القصة صراع عنيف ناشب بين الوطنية والاستبداد ، وبين الحرية والاستعباد ، وبين التعصب والتسامح في الدين .

على أن جوته لم يستفد من هذا جميعه إلا على قدر ، بحيث لم تستطع تلك الملايسات المختلفة أن تجعل من هذه القصة (تراجيديا) تامة ، فهي لم تتعد في مجموعها بعض صور تاريخية بدیعة التأليف حسنة الوصف .

وقد شرع جوته في تأليف روايته هذه عام ١٧٧٥ وأتمها عام ١٧٨٧ ، وكان طوال هذه السنين يفكر فيها . ويعيد النظر ،

ويتحدث عنها في كتاب تذكاراته يوما فيوما . وكان جوته أيامئذ يتطور بين مذهبه الوجداني العنيف القديم وبين تفهمه الجديد للفن والجمال وطموحه نحو المثل العليا والكمال في الأدب . واصل هذا التطور في المذهب وذلك التمسك في الزمان بين الشروع بكتابة القصة وختامها هو الذي أضر بوحدها وروعها .

٢ - « إيفيجينيا »

أخذ « جوته » موضوع هذه القصة عن الأساطير اليونانية ونسج فيها على منوال « أوريبيد » الشاعر الفيلسوف اليوناني . وكان قد سبقه الشاعر الفرنسي « راسين » في القرن السابع عشر فاستمد من أوريبيد موضوع روايته هذه ولكن جوته خالفهما في الخيال والتأليف .

كتب « جوته » قصته هذه نثراً أثناء إقامته في « ويمار » عام ١٨٧٩ وكان وقتئذ خاضعاً في حبه لمدام دي ستين التي ذكرنا أنها هذبت حواشي نفسه فأنقذتها من اضطرابها وأعادتها إليها توازنها ، كما أنقذت « إيفيجينيا » أخاها « أورست » من أيدي « الامينيد » . وأفرغ « جوته » هذا النثر في قالب

شعري عام ١٧٨٦ في غضون رحلته إلى إيطاليا ، ومثلت المسرحية عامئذ ببرلين .

أنقذت الإلهة « ديانا » الفتاة « إيفيجينيا » من التضحية للآلهة ، ونقلتها إلى إقليم « طوريد » الذي يقع في روسيا الجنوبية حيث أصبحت كاهنتها ، وشرعت تعنى بتهديب طباع سكان هذا الاقليم الوحشية ، فاستطاعت أن تحملهم على الاقلاع عن عاداتهم بأن يذبحوا كضحية للإلهة « ديانا » كل الغرباء الذين يأتون إلى بلادهم ، ورغب إليها الملك « تواس » أن تنزوج به فأبى ، لأنها تريد العودة إلى وطنها ، فأهاج الملك أبائها هذا وأمر بالرجوع إلى عادة تقديم الغرباء ضحايا للآلهة « ديانا » ، وهكذا رأت « إيفيجينيا » نفسها مضطرة إلى ذبح شابين يونانيين وجدا في بعض الكهوف على الشاطئ ، وقد عرفت في أحدهما أخاها « أورست » وفي ثانيهما صديقه « بيلاو » .

ويظهر « أورست » في أول القصة بمظهر الشاب السوداوى المزاج الدقيق الإحساس المصاب بتباريح ألم دفين ، فهو قبس من « ورت » ، وكان ينتقم على أسرته أنها اعتادت الاجرام بين الإخوة ، فإذا أعياه هياج نفسه واضطرام أعصابه نام فرأى فيما

يراه النائم أسرته ملتفة حول الاجنداد الذين غضبت الآلهة عليهم ، فتنهت فيه فكرة الأسيرة . وحين أفاق كان قد شفى من آلامه وعادته طمأنينته .

وكانوا يبحثون عن وسيلة للخلاص من حكم الموت الذى قضى به عليهم الملك « تواس » والهرب من وجهه حاملين معهم تمثال الإلهة « ديانا » ، وكان أبولون قد ظهر لأورست من قبل فى الحلم وطلب إليه إنقاذ أخته ، فأشار « بيلاو » بأن يتقدم أحدهم إلى الملك فينصحه بوجوب غسل التمثال بمياه البحر لتطهيره من الدنس الذى ألحقه به « أورست » وأنه لا يستطيع هو ولا أحد من جنده حضور هذه الحفلة ، وألح على « إنييجينيا » بأن تقوم بهذه المهمة لدى الملك ، ولكن الفتاة الطاهرة الذيل أبت أن تخدعه ، وهو الذى أحلها فى قصره ، وتقبلها كابنته ، وأجرى خيره عليها ، فلم تقنع برفض ما طلب منها ، بل افضت إلى الملك بالحقيقة ، فأعجب الملك بصراحتها وإخلاصها ، وأذن لها بالعودة إلى بلادها برفقة أخيها وصديقه . وهكذا استطاعت فتاة بنبل قلبها الكبير أن تقاوم قوة الرجال ومكرهم ، وقد فتح نصرها ذهن أخيها « أورست » فظن إلى

أن الإله « أبولون » حين أمره بأن يعيد أخته من أقليم طوريد إلى بلاد اليونان إنما عني شقيقته « إفيجينيا » لا تمثال « ديانا » أخت الالهة .

على أن الملك أراد أن يمنع السفر بعد أن أذن به ، فذكرته « إفيجينيا » بوعدده ، فأقره مرغماً غاضباً ، فأبت السفر كأنها منفية مبعدة ، وطلبت من الملك أن يبسط يده عليها مباركاً مودعاً بكلمات عذبة ، دليلاً على رضاه عنها وحبها لها ، فبسط الملك يده لها قائلاً « الوداع » .

هذه خلاصة القصة كما وضعها « جوته » وهي تختلف تماماً في نفسية أشخاصها عن قصة « أوريبيد » اليونانية ، ففي هذه الأخيرة تظهر « إفيجينيا » فتاة مخادعة ماكرة منتقمة ، بينما صورها « جوته » فتاة نبيلة العواطف طاهرة الذيل كريمة الأخلاق ، يقول الملك « تواس » أنها قديسة ، ويحييها « بيلاو » كأنها مظهر للألوهية ، ويشبهها « إورست » بالآلهة أو بأحد الأنصاب المقدسة التي تقام في المدن لوقايتها وحمايتها .

على أن « جوته » قد جعل فيها فوق هذه المواهب مزايا الأنوثة وطباعها ، فهي ذات إحساس دقيق وشعور فياض ، تحن

إلى وطنها وتصفى حيناً لنصائح « بيلاو » الذى كان يطلب إليها أن تغدر بالملك وتخذعه ، ولكنها لاتصفى فى النهاية إلى غير ضميرها وما يقضى به عليها الواجب .

وهذه الأخلاق القوية تبتعد بها قليلا عن الصفات اليونانية فى تلك الحقبة من الزمان ، بل إنها كما قال « جوته » لا تنطق بكلمة لا تستطيع القديسة « أجات دى بولون » أن تتحدث بها .

ويشعر مطالع هذه القصة بأنها كتبت بتأثير سيدة حسنة الأخلاق طموحة إلى مثل عليا فى الحياة ، كما كانت مدام دى ستين ، وأن حوارها فلسفى يلذه ويستهويه ، ولعلها إذا مثلت على المسرح كانت مملة مرهقة ، لأن حوادثها بالرغم من تسلسلها وجدانية صوفية فى مظهرها ، أكثر مما هى قوية عنيفة تبعث الحماس فى نفس المشاهد ، فهى إلى قصيدة طويلة جميلة أقرب منها إلى قصة تمثيلية .

وهذه القصة تجمع بين القديم والحديث ، فإن جمال شكلها واتزانها ووضوحه يجعلها خير مثال للفن اليونانى ، بينما دقة العواطف وعمقها يجعلها عصرية محضة .

٣ — « توركاتو تاسو »

هي قصة تمثيلية شعرية في خمسة فصول أخذ « جوته » حوادثها من حياة الشاعر الإيطالي المعروف « توركاتو تاسو » أو كما يسميه الفرنسيون « لوتاس » ، الذي ولد بمدينة سورانتة في ١١ مارس سنة ١٥٤٤ وتوفي بمدينة روما يوم ٢٥ أبريل سنة ١٥٩٥ ، وكان هذا الشاعر وافر الذكاء سريع الخاطر ، وكان إلى هذا شديد الزهو والخيلاء ، كبير الإعجاب بنفسه ، يود لو أن ملوك المقاطعات الإيطالية كلها يعطفون عليه ويقربونه منهم . وقد نظم قصيدته المشهورة « أورشليم المنقذة » من نوع (الايوبيه) ولعلها من خير الملاحم التي نظمت في غير التاريخ القديم . ويقال أنه أراد أن يتقرب بها إلى أولئك الملوك ، لأنه لما كان مريضاً بالقصبة يتناول حروب الصليبيين ، وكان لا يزال هناك الكثيرون من عائلات أبطالها أحياء ، خيل له أنهم سوف يتزلفون إليه لكي يذكر أسرهم في شعره ، وهكذا كان . ولكنه لم يكدر يقيم نظامها حتى كانت وبالا عليه لان كثرة تنقله بين أمراء المقاطعات أحفظ عليه قلب الأمير المتصل به ، والذي كان يجري عليه الأرزاق والنعم ، ولأن الشاعر ظن أن الأمراء يتحايلون عليه

اسرقة القصة قبل نشرها كي يحوروا فيها ويضيفوا إليها ، ثم اعترته وساوس وساورته خيالات أخرجته في بعض الأحيان عن أطواره المعتادة ، فكان يخيّل له أنه مضطهد ، وأن الناس متحالفون على عدائه ، فصار كثير التنقل ، لا يبالي بالفقر والبرد والتعب ، وزاد في الدل على أميره حتى زجه في السجن ، فظل فيه سبع سنوات ، ثم أفرج عنه فلم يعمر بعد ذلك طويلا .

عرض « جوته » في قصته حياة « تاسو » في عهد اتصاله الأول بالأمير « الفونس ديست » ، وتجري حوادثها بين فريقين من الأشخاص : الفريق الأول « تاسو » والأميرة ، وهما بعبدان عن سير تلك الحوادث ، ولا تظهر أخلاقهما إلا من خلال الحوار الفلسفي الذي يجري بينهما ، والفريق الثاني : « أنطونيو » أحد رجال القصر « والكونتس امونور » اللذان يعدان قوام القصة ، بما يدبرانه من الدسائس ويحكيكانه من الحبائل ، أما الأمير « ألفونس » فهو حلقة الاتصال بين هذين الفريقين المتناقضين كتناقض الخيال والواقع .

تبتدىء القصة بمشهد السيدتين ، الأميرة والكونتس وهما تنزهان في الحديقة ، وقد بدت فيها تباشير الربيع ، فأورقت غصون

الأشجار ، وتحلت بالأزهار العابقة ، فأعدت السيدتان إكليين ،
 وخصت الأميرة إكليها بالشاعر ، لأنه أنتم قصيدته « أورشليم
 المنقذة » فلا يكاد يتقبله « تاسو » فرحاً ، لاعتقاده أنه دليل على
 حب الأميرة له ، هذه الأميرة التي شغفه حبها وتيمه ، إنه لا يكاد
 يتقبل الإكلييل حتى يظهر « أنطونيو » مستشار الدوق ، فيلتقي
 الرجلان ، أما الشاعر فتعلم بنشوة السعادة التي تبينها في حب
 الأميرة ، وأما المستشار فمسرور لأنه قام خير قيام بمهمة سياسية
 ألقاها إليه الدوق ، وهو يحسد الشاعر لدلائل العطف الذي يلقاه
 والإجلال الذي يحاط به .

نلمح من أول حديثهما البغض الذي يضمه الثاني للأول ،
 وحوادث القصة كلها وليدة هذا البغض .

تجراً « تاسو » أن يبوح بحبه للأميرة ، فلم ترفضه ، ولكنها لم
 تشجعه ، فزاد في غبطته وسروره ، ونصحت له الأميرة أن يصطاح
 مع « أنطونيو » ، فيمثل لإرادتها ويذهب إليه ، ولكن « أنطونيو »
 لا ينيله رغبته بل يعامله معاملة الأطفال ، ويأبى أن يسلم له القيادة ،
 على علمه بطباعه المتمردة الحذرة التي صقلها الحب إلى حين ، فتثور
 نفس « تاسو » ويستل حسامه ليحاسب غريمه على ما يقول ،

فيأتي «أنطونيو» مبارزته، بحجة أنهما في قصر الأميرة، فيدعوه الشاعر للحاق به في أي مكان يختاره، وبينما هما في هذا الحوار يدخل الأمير فيعرف ما جرى بينهما، ويستطيع مستشاره أن يستميله بدهائه، فيغضب على «تاسو» ويأمر به فيلقى في السجن، بعد أن يؤخذ منه سيفه وتاجه، على أن مقامه في السجن لا يطول لأن «أنطونيو» أصبح لا يخشى بأسه بعد الذي جرى، وهو يدلي في فصل ممتع إلى «الكونتس ليونور» بأسباب حفيظته على الشاعر: أنه وجدته بعد عودته من روما حائزاً لرضى الأمير ونواله، من غير أن يأتي أمراً هاماً يجعله خليقاً بهذا العطف، وراه يظفر على رأسه إكليل غار بيد أجمل النساء وأنبلهن، على أنه حين قاس قوته بقوته ودهاءه بدهائه أيقن أنه أصلب منه عوداً وأشد دهاء، لذلك زال ما بنفسه نحو الشاعر، لأن هذا الأخير لا يستطيع أن يطاوله قوة مراس وشدة ودهاء.

شاء «تاسو» أن يغادر القصر بعد أن أفرج عنه، هرباً من الشباك المنصوبة له فيه، فيحاول «أنطونيو» باسمه ثم باسم الدوق، أن يرجعه عن قصده، مبرهنًا بذلك على أنه خير مثال لأخلاق رجال بطانة الملوك في ذلك القصر، رأى «أنطونيو» أنه كان

السبب فيما جرى للشاعر، وأن أعماله هي التي حملته على مغادرة القصر، لذلك وجد لازماً عليه أن يقنعه بالبقاء، ولكن الأمير يعلم من أمره ما لا يعلمه مستشاره، فلا يكاد يتحدث إليه عن أخلاق «تاسو» وما فيها من شذوذ وسرعة نفور حتى يتم «أنطونيو» الوصف بطريقة هزلية مقذعة، وينصح للأمير أن يتركه يذهب حيث يشاء.

مثل «جوته» في هذه القصة الصراع العنيف القائم أبداً بين عالم الخيال وعالم الحقيقة، وأظهر الفرق بين نفسية الشاعر ونفسية غيره من عظماء الرجال، ودل على ما في عطف الأمراء على شاعر عبقرى من شر وإحراج لهذه العبقرية، بالرغم من حب الأمير للأدب وتشجيعه له. وهو بين هذا وذاك يصف ما في حياة القصور من عظمة وجلال، وما يترتب بها من زوال وفناء ويقال أنه وصف فيها بعض الشخصيات الذين عرفهم في قصر «ويمار»، وأنه كتبها بينما كان لا يزال متأثراً بحب «مدام دي ستين» التي شاء أن يمثلها في الأميرة، ونحن نذكر علاقتهما البريئة، ومحاولتها تهدئة ثورته وكبح غلوائه، حين نطالع في القصة ما تفضى به الأميرة لشاعرها حين تذكر أنها انتظرت منذ رآته

أنه سينيلها لذة جديدة قائمة على متعة فكرية ، وأن السعادة في الحب قائمة على المرأة وعلى اتحاد الأرواح اتحاداً صوفياً بحيثاً ينفي الرغبات الباطلة والشهوات الدنيئة ، لأن الاتصال الجسمي وهم زائل ، والتجانس النفسى هو السعادة الحقيقية ، فإذا قال لها «تاسو» إن حياته متعلقة بها وأنها محط آماله وأمانيه ، وموضع إلهامه وأصل عبقرية ، محضته النصيح ، وحضته على الرزانة والهدوء ، لأنها تخشى أن تكون قد باحت بمكنون ضميرها ، وسوفته وعوداً غير بريئة .

ومن الشخصيات التى يقال أنه وصفها فى قصته ، كبير وزراء مقاطعة « وymar » ، الذى أظهره فى شخص « أنطونيو » ، والذى زعموا أنه حاول فى بدء اتصال « جوته » بأمر المقاطعة أن يحول بينه وبين توليته وظائف هامة فيها ، كما زعموا أنه مثل صديقه « هردر » فى أنطونيو ، لأنه كان بينه وبين صديقه حزازات أدبية أما « الدوق الفونس » فهو أمير مقاطعة « وymar » ، وقد صورته مثلاً للحاكم الذى لا إرادة له غير ما يملى عليه ، فالدوق حين يعطف على الشاعر إنما يعطف على المؤلف الذى سيخلد ذكره وذكر أسرته ، كما خلد أمير مقاطعة « وymar » لأنه قرب إليه

« جوته » ، فصار ذكره مقروناً بذكر الشاعر الخالد ، وكما يخلد كل الملوك الذين يقرنون اسمهم باسم الخالدين من الأدباء المعاصرين لهم .

وقد قال « جوته » في كتاب ذكر ياته : إنه أودع في هذه القصة « أشياء كثيرة شخصية » لذلك حاول الكثيرون أن يتبينوا هذه الأشياء ، وهي تختصر فيما ذكرناه مضافاً إليه أنه جعل في شخصية « تاسو » شيئاً من نفسه لأنه ، وهو الشاعر النابه ، قدير على أن يفهم نفسية شاعر نابه مثله بقياسها إلى نفسيته .

والحق أن وصف « تاسو » لم يكن سهلاً ، لأن أخلاقه وأفعاله مضطربة ، كاضطراب العواطف الجائشة في صدره ، والخواطر الفياضة في نفسه ، فذاك كان حماسه السريع نتيجة دقة إحساسه ، وكان يستمد جمال أسلوبه وروعته من كبريائه وميله إلى العزلة والتأمل . ومن أدق أوصافه التي قلما تنبه لها نقاد أدبه حذره من الإنسانية وبغضه لها . وقد فطن جوته لهذا جميعه فمثله في قصته ، وكثيراً ما أجرى على لسانه آراء وأحاديث استمدتها من أشعاره وتآليفه . وجعل حوادث القصة كلها منصبة على بيان أخلاق الشاعر ودرس نفسيته ، بحيث تظهر هذه الأخلاق شيئاً

فشيئاً ، وبحيث نتعرف من مطالعتها أن هذه القصة لم تكتب
 للمسرح في أول الأمر ، ونحن نعلم أن جوته ابتداءً كتابتها
 نثراً في « زيمار » ، وعاد إليها في أوقات مختلفة ، فجعلها مسرحية
 ونظمها شعراً ، حتى أتمها في شهر يوليو سنة ١٧٨٩ .

٧

جوته وشيلر

انتهت الحرب بالخذال الدول المتألبة على فرنسا بعد واقعة « فالمي » التي سجل فيها رجال الثورة انتصاراً باهراً لهم ، فعاد جوته إلى ويمار في صيف سنة ١٧٩٣ ليستقبل عهداً حفل بإنتاج أدبي جليل ، بفضل صداقته للشاعر الروائي شيلر .

كان « فريدريك شيلر » في السابعة والعشرين من عمره حين جاء إلى ويمار ، ملبياً دعوة أميرها « شارل أوجست » الذي عينه مستشاراً فأستاذاً في جامعة « إينا » ، وكان قد درس الطب والحقوق ، وألف رواية تمثيلية ، وشرع في تأليف كتب في التاريخ وعاش في ويمار سنوات ، لم يتعرف فيها إلى جوته ولم يسمع فيها أحدهما إلى صاحبه ، ولعل واحداً منهما لم يكن راضياً عن فن الآخر ، وكانا يخطان في ألوان الحياة التي يعيشان منها ، وفي نوع التفكير والأدب الذي أخذ به كل واحد منهما .

ابتدأ جوته حياته شاعراً ابتداءً ثم درس علوم الطبيعة والنبات وطبقات الأرض ، فانقلب عالماً بمجاعة ، ودرس « شيلر »

في مستهل حياته الطب ، ثم عكف على نظم الشعر حتى صار أديباً شاعراً ، وكان « جوته » يأخذ بالواقع ويزدري التفكير المطلق وما وراء الطبيعة ، ويستأهم أدبه من تجاربه الذاتية ، وكان « شيلر » يدرس الفلسفة ، ويعتمد فيما يكتبه على التفكير المجرد ، والجدل وقرع الحججة بالحجة ، كان جوته ذاتياً يعتمد على نفسه واختباراته ، بينما كان شيلر موضوعياً يأخذ بالعقل والفكر .

هذا وقد عاش « جوته » عيشة رخاء ومرض ، متنقلاً من بلد إلى بلد ، يشبع شهوات روحه وقلبه ، وينعم بحياة سهلة لينية ، أما « شيلر » فقد نشأ فقيراً وعاش في تقير دائم وحرب متواصلة مع الحياة والمجتمع ، فلا غرو إذا كان « جوته » في فريق المحافظين ، و « شيلر » من الناقمين الثائرين .

ومن غرائب التضاد أن هذا الثائر على المجتمع وأوضاعه في عقله وفكره ، كان شديد التمسك بالأخلاق والتقاليد في حياته الخاصة ، وكان من أشد الناس نقداً لهيب « جوته » في حياته الخاصة ، وقد التقيا لأول مرة في اجتماع عمدة جمعية التاريخ الطبيعي بمدينة « إينا » ، فلاحظا أن آراءهما متفقة في نقد بعض ما عرض في ذلك الاجتماع ، فاذا انفض خرجا معاً فصحب جوته

صاحبه إلى منزله ، فدعاه « شيلر لزيارته فزاره ، ولما افترقا كانا قد أصبحا صديقين ، كأنهما شعرا أن كل واحد منهما يكمل الآخر ، كما قرر ذلك « شيلر » في خطاب بعث به إلى جوته في ٢٣ أغسطس سنة ١٧٩٤ ، شرح فيه تفكيره القائم على الجدل ، وقابله بتفكير صاحبه المتميز بالوجدان ، مؤكداً أن هاتين العقليتين جديرتان بأن تتفقا بدلاً من أن تتخاصما وتتنافرا ، لأن كل واحدة منهما متعمة للأخرى .

وأصدر شيلر مجلة عنوانها « الساعات » ، فاشترك جوته في تحريرها ، ولكنها لم تلق رواجاً .

واشتدت الحملة على « جوته » بمدينة ويمار بسبب حياته الخاصة ، وامتنع الأمير من حمايته ، فانقطع عن القصر إلا فيما تقتضيه وظيفته ، ثم انتقل إلى « إينا » ليوثق عرى صلاته « بشيلر » ، فقضيا عشر سنوات في إنتاج باهر خدما به الفن خدمات جليلة . كان جوته يدير مسرح ويمار ، وكان يؤلف المسرحيات لتمثل فيه ، ويبحث صديقه على الكتابة ، وقد يهم بمسرحية ثم يترك موضوعها لصديقه ، حتى صار ذلك المسرح مدرسة للفن جليلة القدر عظيمة الفائدة ، بفضل تعاون الأديبين الكبيرين .

وبينما كانت حتى العمل تلهبهما وصلت إلى مدينة و يمار الأديبة
الفرنسية مدام دي ستال في ١٣ ديسمبر سنة ١٨٠٣ ، وكانت تطوف
ألمانيا استعداداً لتأليف كتابها « في ألمانيا » ، وهو الكتاب الذي
عد عند ظهوره ركناً من أركان الأدب الابتداعي في فرنسا ،
فاحتفى بها القوم وأقاموا لها المآدب ، وقابلت « جوته » ووصفت
على طريقتهما الأثر الذي تركته في نفسها زيارتها له ، والحقيقة أنها
هي التي استلمت قياد الحديث طيلة تلك المقابلة ، حتى إنها لم تترك
له مجالاً ليقول كلمة واحدة ، وقد قال « جوته » في وصفها : إن
عيبها الوحيد هو نشاط لسانها ، لأنه إذا أراد الإنسان الإصغاء
إلى حديثها وجب عليه أن يتحول إلى آلة سامعة من قمة رأسه
إلى إخص قدمه ، أما هي فقد قالت عنه : إنها لا تحبه إلا إذا
احتسى كثيراً من الشمبانيا .

و يشاء الله أن يموت شيلز مصدوراً في ٥ مايو سنة ١٨٠٥ ،
فتنفصم عرى تلك الصداقة الأدبية المتينة ، التي أفاد منها أديبان
كبيران فائدة عظيمة ، وقد كتب « جوته » فيها بعد « لقد فقدت
جوته شطراً من نفسي » .

وكانت تلك الأعوام خصبة في تأليف « جوته » الأدبي ، فقد

كتب قصصاً كثيرة ، نكتفي بالإشارة إلى ثلاث منها :

١ — « ولهم ميستر » قصة طويلة تقع في جزأين ، تناول في أولها حياة بطل القصة في عهد طفولته وتذسنته ، فذكر الكتب التي طالعها ووصف مطامح نفسه وفورة شبابه وحوادث الحب التي عصفت بقلبه الفتى . ويقال أن جوته وصف شبابه في شخص ذلك البطل ، ثم انتقل في الجزء الثاني من القصة إلى المجتمع الراقى ، ومثل فيه جماعة من حاشية بلاط « ويمار » .

٢ — « أجاتون » وهي قصة تهذيبية ، وصف فيها فتى في طور انتقاله من الحياة الفكرية الخيالية إلى الحياة العملية ، وقد تناول بعض أشخاصها بطريقة واقعية ، فمثلهم على حقيقة أنهم أحياء يرزقون . وفي القصة وصف طريق حياة الشقاء والبؤس ، يكسب أبطال القصة عطف القارىء وشفقته ، إنه يقول على لسان بعضهم : « لا يعرفك أيتها القوى السماوية من لم يأكل خبزه ممزوجاً بالدموع ، ومن لم يقض ليله باكياً في مضجعه » ، وقوله : « لا يفهم آلامى غير من يشعر بالرغبة الملحة » .

٣ — « هرمان ودورتيه » وهي قصيدة طويلة ، نظم فيها قصة فتى يسكن الضفة اليمنى من نهر الرين ، شاء أن يساعد اللاجئين

من سكان الضفة اليسرى ، الذين هربوا من بلادهم عند اجتياح
الفرنسيين لها فرأى « دورتيه » وأحبها وأراد أن يتزوجها فعارض
أهله في هذا الزواج ، ثم رضوا به بفضل وساطة بعض الأصدقاء ،
بيد أن « هرمان » حين لقي « دورتيه » تحدث إليها عن رغبته
في حياة ، جعلها تفهم أنه يريد لها خادمة له . فرفضت في إباء ،
ثم قبلت الزواج منه ، بعد أن سألتها عما يريد منها في جلاء
ووضوح .

وإذا كان موضوع هذه القصة بسيطاً فإن جوته جلاه في شعر
رائع ، وصف فيه الحب الذي يدخل القلب عن طريق العقل ، مما
جعل قصته ثمرة شهية من ثمار التفكير الناضج والفن الكامل .

جوته و نابوليون

كانت أوروبا تضطرب في ذلك العهد بحروب عظيمة ، كانت مظهر آمن مظاهر العبقرية من ناحية ، ووصمة خزي في جبين الإنسانية من ناحية أخرى ، تلك هي حروب نابليون . وكانت بروسيا لا تزال ناقمة على فرنسا لأندحارها في واقعة « فالمي » ، فانضمت إلى أعدائها وأعلنت الحرب عليها . واشترك « شارل أوجست » في الحرب الثانية كما اشترك في الأولى ، وخان النصر البنود البروسية في هزم كما خانها في تلك ، وفي صباح يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٨٠٦ سمع سكان ويمار مزيم المدافع يقصف في « ايننا » . كان « جوته » عظيم الإيمان بحظ نابليون ، شديد المخاوف على تاج أميره أن يهوى عن رأسه ، ولكن انكسار الجيوش البروسية واقترب الحرب من المقاطعة والخوف ، كل هذا لم يحل دون تمثيل قصة من نوع الأوبريت على مسرح ويمار يوم ١٣ أكتوبر ، وكانت هذه القصة من تأليف « جوته » .

عند ما اقتربت الحرب من مدينة ويمار رحل من سكانها

من رحل وأقام من أقام . وكان بين الراحلين الأميرة الوالدة « الدوقة أميلي » ، وبين المقيمين زوجة الأمير « الدوقة لويزه » و « جوته » .

وفي مساء يوم ١٤ أكتوبر كان صوت المدافع يقترب شيئاً فشيئاً من « ويمار » ثم أخذت القنابل تتساقط حول المدينة وقد مرت واحدة منها فوق قصر جوته . وما كادت الشمس تميل إلى المغيب حتى كان الجيش الفرنسى على أبواب المدينة يطارد قلول الجيش البروسى . فأرسل جوته ابنه وكاتب سره ليقدم للجيش الفرنسى الجعة ، ويدعوا ضباطه إلى قصره الذى كان يغص باللاجئين إليه من سكان المدينة .

وفي اليوم التالى استقبل « جوته » فى قصره المارشال « اينى » وغيره من كبار القواد الذين كانوا يقدرونه قدره ، فوكلوا إلى بعض الجند حراسة القصر . وكان يتردد على منزله الكثيرون من الضباط ، وحل فيه بعضهم .

وكانت « كريستيان » عشيقة جوته تختلط بهم فتقدم لهم طعامهم وتشهد مجالس شربهم . فخاف جوته أن يعتدى أحدهم عليها جهلاً منه بحالتها برب الدار فمقد قرانه بها فى يوم ١٩

أكتوبر في حفلة خاصة لم يشهدا غير ابنيهما وكاتب السر .
وفي غضون هذا كان نابوليون قد وصل إلى قصر الدوق
بويمار فاستقبلته الأميرة لويزة في عزة نفس وقوة جنان وحسن
سياسة أكسبتها إعجاب نابوليون واحترامه .

ومرت سنة الحرب ، وتلتها سنتان مليئتان بالغم والحزن . فقد
قضت الدوقة أميلي نحبها في سنة ١٨٠٧ وكانت تعطف على
جوته وتعجب بمواهبه ، وماتت والدته في سنة ١٨١٦ ، ولكن
أعماله لم تتح له فرصة للسفر إلى فرنكفورت لتقبل العزاء والإهتمام
بميراثه منها ، فأناوب عنه زوجه « كريستيان » ، ويقال إنها قامت
بالمهمتين خير قيام ، وأن الحسين ألف مارك التي ورثها عن والدته
أتاحت له بسطة من العيش لم يكن ينالها من دخله السابق .

وكان نابوليون لا يزال ينتقل من نصر إلى نصر حتى استقر
رأى المحاربين على عقد مؤتمر عام بمدينة « إبرفوت » بالمانيا ،
يتفادى فيه إمبراطور فرنسا وقيصر روسيا وملك بروسيا ،
ويشهده وزراءهم وقواد جيوشهم ورجال حاشيتهم . وكان الدوق
« شارل أوجست » بين المؤتمرين . فرغب إلى جوته أن ينضم
إليه ففعل بعد تردد قليل ، ووصل إلى تلك المدينة في ٢٩ سبتمبر

سنة ١٨٠٨ ، وشهد تمثيل فرقة الكوميدي فرانسيز وكان على رأسها الممثل الشهير « تلهما » ، وكان نابوليون قد استصحب الفرقة بين حاشيته . ثم تعرف إلى بعض عظماء الرجال فأخبر أحدهم نابليون بوجود « جوته » بين رجال المؤتمر فحدد لمقابلته يوم ٢ أكتوبر عند الساعة العاشرة صباحاً .

كانت هذه المقابلة حادثاً هاماً في حياة جوته لم يفتأ يردد حديثها طول حياته . فقد وصل إلى القصر الذي حل فيه نابليون قبيل الموعد بقليل مرتدياً ثيابه الرسمية ، فلقى جماعة من الوزراء والقواد ينتظرون الأذن لهم بالدخول على الامبراطور ، فانضم إليهم . وعند الساعة العاشرة فتح باب القاعة التي كان نابليون فيها فدخلوها جميعاً . وكان يتناول طعام الفطور . فأخذ يتحدث إلى كل واحد منهم في مهام الدولة وشؤونها المالية . ولما رأى نابليون جوته أشار إليه بان يتقدم وسأله عن سنه فأجابه : ستون سنة ؛ فقال له نابليون انه يحمل عبء هذه السنين بنشاط . ثم أردف : أعرف إنك أعظم شاعر تراجيدى في ألمانيا . فأجابه جوته : انك تسيء إلى بلادى ياذا الجلالة لأننا نعتقد أن عندنا شعراء كباراً لابد أن جالاتكم سمعت بهم أمثال « شيلر » و « ليسنج »

و « ويلند » . فأجاب نابوليون : اعترف انى لا أعرف عنهم شيئاً .. ثم أصبح نابوليون لجوته أن يشهد فى كل مساء تمثيل فرقة الكوميدي فرانسيز .

وأشار بعض الحاضرين إلى أن جوته ترجم من قبل إلى الألمانية مسرحية « محمد » لفولتير ، فقال الامبراطور إنها ليست ذات قيمة .

ولما انتقل الحديث إلى قصة « ورتز » قال نابوليون إنه طالعها سبع مرات فى غضون حياته على مصر ، وانتقد فصلا منها انتقاداً اعترف جوته فيما بعد بصحته .

ثم أخذ نابوليون يتحدث إلى بعض رجال حاشيته فى مهام الدولة ، فتنحى جوته إلى أحد جوانب القاعة ، ومالبث نابوليون أن لحق به وسأله عن حياته الخاصة وعن أمير ويمار ، وكان حديثه ينم عن تقدير وعطف . وقد قال فى نهايته لأحد رجاله مشيراً إلى جوته « هذا رجل » .

وفى يوم ٦ اكتوبر انتقل نابوليون إلى « ويمار » ومثلت فرقة الكوميدي فرانسيز على المسرح الذى كان يتولى « جوته » إدارته رواية « موت قيصر » ، ثم أقيمت بعد التمثيل حفلة راقصة

في القصر دعا نابوليون في غضونهما جوته لمقابلته وكان مما قاله له:
يجب أن تكون التراجيديا مدرسة للملوك والشعوب وأما الشاعر
فينبغي أن تكون أعظم آثاره . يجب أن تذهب إلى باريس وأن
تكتب من جديد قصة « موت قيصر » وأن تبين كيف إنه
كان يستطيع تحقيق سعادة العالم لو أنهم تركوه يعيش . . . لا شيء
يساوى تراجيديا حسنة الوضع والتأليف . إنها تتفوق على التاريخ
من بعض النواحي .

وحدث ذكرى انتصار « اينا » في يوم ١٤ أكتوبر فأنعم
نابوليون في هذه المناسبة على جوته بوسام جوقة الشرف .
تنتهى عند هذا الحد علاقة جوته بنابوليون . وقد امتلأت
نفس جوته إعجاباً بالماهل الكبير الذي كان يمثل القدرة في أقصى
مجالها ، يتلاعب بالأقدار ، وينصرف بالعروش والممالك طوع
إرادته ووفق أهوائه ، وقد صور جوته فيما بعد بحيث جعله في
أعلى قمة يصل إليها نشاط الرجولة . أما نابوليون فلعله رأى فيه
جندياً عظيماً يضويه تحت لوائه فلا يثور به ولا يوجه لأعماله النقد
الشديد كما فعل كبار الأدباء الفرنسيين .

وقد احتفظ جوته بإعجابه بنابوليون حتى في أيام محنته . ولما

شاءت الأقدار أن يأفل نجمه ، وتألبت عليه دول أوربا ، وعادت ألمانيا إلى الحرب ، أبى جوته على ابنه الانخراط في الجيش والانضمام إلى المحاربين .

ولما انتصرت الدول المتحالفة على فرنسا ودخلت جيوشها باريس في سنة ١٨١٤ رغب ملك بروسيا إلى جوته بأن ينظم قصيدة في ذلك الحادث الجلل . ففعل مرغماً ونظم بعنوان « نهضة ابيميندس » قصيدة أشار فيها من بعيد إلى انتصار الدول المتحالفة .

وكان « جوته » إذا هاجم أحد محدثيه نابوليون يقول له : « دعوا امبراطوري وشأنه » .

أما نابوليون فانه لم يذكر جوته في سانت هيلين بكلمة واحدة .

الميلول الاختيارية

إن الأحداث التي شهدتها جوته وحزنه على شيلر ووالدة الأمير ووالدته ، كل هذا لم يشغله عن نفسه ، ولم يحل بينه وبين الأدب ، وبين قلبه وبين النساء .

فقد أتم « جوته » في ذلك الطور من حياته الجزء الأول من قصة فاوست التي سنعود للحديث عنها في الفصل الأخير من هذا الكتاب ، ونظم قصيدته الرائعة « بندور » ، وشرع في كتابة قصة « الميلول الاختيارية » ، وكان قد أحس في قرارة نفسه بأنه قد بلغ القمة العليا من أدبه وعمره ، بعد أن خاض غمار الحياة موزعا بين العمل والتفكير ، وبين الشك والتهكم ، فتغلب على شياطينه ، وانتصر على عادات الزمان ، فأخذ يفكر بكتابة ذكرياته ، وشرع بجمع المواد التي تساعد على تدوينها وقد أتمها جوته بعد ذلك ونشرها بعنوان « شعر وحقيقة » وهو اسم خليق بتلك الذكريات التي كتبها في أسلوب قصصي أنيق طلي ، فتحدث عن تطوره الفكري ، ووصف حالة الأدب الألماني عندما

باشره في طور الشباب وصفاً دقيقاً شاملاً ، وأبدع في رواية حوادثه الغرامية مثل حبه لشارلوت بوف وفريدريك بريون . أما النسوة اللواتي تداخلن في حياته فنذكر منهن «بتينا برنتانو» وكانت ابنة مكسيميليان التي رويانا من قبل حب جوته لها ، والتي تزوجت بيير برنتانو ، وكان لحوادث حبها أثر في قصة ورتز .

كانت بتينا في نحو التاسعة عشرة من عمرها ، صغيرة الجسم حتى تخال أنها في الثانية عشرة . طالعت شعر جوته وقصصه وأحبته ، واتصلت بوالدته فاستطاعت بواسطتها أن تتبادل معه رسائل جمعتها فيما بعد بعنوان « رسائل جوته إلى فتاة » ، وكتبت لها مقدمة طويلة روت فيها ما حدثتها أم جوته عن ابنها . ونشرت رسائلها إليها ، وقد وصفت بتينا في إحدى هذه الرسائل كيف قابلت الشاعر لأول مرة ، وكان ذلك في أواخر شهر إبريل سنة ١٨٠٧ في غرفته ، وبينما كان جوته يتحدث إليها حديثاً عادياً لم تطق صبراً في مجلسها ذاك فقامت من مكانها وجلست على ركبته ، وإذ ضمها جوته إلى صدره ، استنامت طويلاً إليه لأنها كانت لا تزال منهوكة القوى بعد سفرها الطويل الشاق .

وقد عجب النقاد الفرنسي « سانت بوف » لهذا التصرف الشاذ . ثم أردف بأن الناس في ألمانيا يختلفون تماماً عن الشعوب اللاتينية ، ونقول إنهم يخالفون كذلك تقاليدنا الشرقية . وتعددت المقابلات بين الشاعر الشيخ وبين الفتاة الشابة . ثم تفلت راجعة إلى فرانكفورت ، وعادت المراسلات بينهما ، ولعل جوته صار لا يعنى بتلك الرسائل لأنه كثيراً ما كلف كاتبه بالرد عليها .

وتزوجت « بتينا » بعد ذلك وعادت إلى ويمار فلم تلبث أن خاصمت « كرستيان » زوج جوته ، وكانت تحتقرها وتجد أنها غير جديرة بشرف ذلك الزواج . فانتصر « جوته » لزوجه وقطع علاقته ببتينا .

وكانت الفتاة الثانية « مينا هرزليب » التي تبناها « فرومان » صاحب مكتبة بمدينة « اينما » وكان بحاجة أديباً نشر فيما نشر من الكتب قصائد (سونه) لفلوطارخس . وكانت « مينا » في ميعة الصبا بارعة الجمال رائعة الفتنة فأحس « السيد الشيخ العزيز » ، كما كانت تدعوه ، بلواعج الغرام تشور في قلبه وأضرم نار الشباب المتأخر في نفسه ، فخاف مغبة حبه لفتاة عرفها طفلة وعنى بتربيتها ،

وهو اليوم يراها شابة كاملة الأنوثة كزهرة يانعة القطف . فضم عواطفه إلى نفسه ، وطوى حبه في قلبه ، وغادر « ايننا » إلى ويمار . ولكنه فعل ذلك بعد أن نظم سبع عشرة قصيدة « سونه » وقصيدة « بندور » ويقال إن كل هذا الشعر كان من وحيها ، كما يقال إنه استمار لبطالة قصة « الميول الاختيارية » أشياء كثيرة مما لاحظته في « ميننا هرزلات »

ظهرت هذه القصة في سنة ١٨٠٩ فكان لها دوى كبير ورأى النقاد شبهها عظيمًا بينها وبين « ورتز » ، لولا أن ورتز قصة شباب وحماس ، وإن الميول الاختيارية قصة شيخوخة وتفكير . وتقوم هذه القصة على أربعة أشخاص هما الزوجان « ادوار » و « شارلوت » وضيفتاهما « اوديل » ابنة أخى شارلوت وضابط فى الجيش من أصدقاء « ادوار » . وقد وصف جوته وصفاً بارعا كيف تولدت الميول فى نفوس هؤلاء الأربعة ونمت شيئاً فشيئاً حتى تسلطت على قلوبهم فلم يلاحظوها إلا بعد أن أصبحت قوية عنيفة . أحب « ادوار » « اوديل » وأحب الضابط « شارلوت » وقد تحكمت هذه الأخيرة بعواطفها وتغلبت على حبها . أما ادوار فلم يستطع إلى ذلك سبيلا فشاء الطلاق من زوجته فابتته عليه

فسافر هاجراً منزله وظلت اوديل مع شارلوت . وتتطور حوادث
القصة تارة في بطن خارج عن موضوعها يسىء إلى لمتها ووحدها ،
وتارة في عنف ، حتى تنتهى بموت « اوديل » « وادوار » .

الشيخوخة

كان جوته يعاني وجع الكلى منذ زمن طويل ، وكان في صيف كل عام يقصد إلى بعض المدن ذات المياه المعدنية للاستشفاء ، ولعله كان يقصد كذلك هرباً من ثرثرة زوجته المرهقة وأخلاقها الوضيعة ، وطلباً لاقيا صديقاته النبيلات الجميلات ، حيث يصيروا سطة عقد إجتماعتهن ومطمح أنظارهن . وفي غضون إحدى هذه الرحلات التي قام بها في سنة ١٨١٢ ، التقى جوته بمدينة « تيلتز » بالموسيقى الأشهرى « بتهوفن » ، فأنس كل واحد منهما برفيقه ، وكانا قد بلغا أسنى قمم العبقرية والشهرة .

وقد روت « بتيينا برنتانو » قصة إذا لم تكن قد جرت حوادثها حقيقة فإنها ذات دلالة كبيرة على نفسية كل واحد منهما : نفسية الرجل الذي عاش في القصور وتقلب في المناصب الرفيعة ، ونفسية الرجل الذي كان كل همه أن يصبح فناناً عبقرياً وأن يحترم فيه هذه الميزة .

روت « بتينا » أنه بينما كان جوته وبتهوفن يتنزهان في حديقة المدينة التقيا بالأسرة المالكة على عرش النمسا ، فتوقف جوته عن السير ، وانتحى جانباً من الطريق ، منتظراً في احترام مرور الأمراء . أما « بتهوفن » فإنه أنزل قبعته على عينيه بحركة عصبية ، وضم معطفه على صدره ، وسار في طريقه ويده مشبوكتان وراء ظهره . فافسح له الأمراء الطريق ، وبادره الأرشيديوق « رودلف » بالتحية ، وابتسمت له الأميرة ، ثم أخذت الأسرة في طريقها . والتفت بتهوفن إلى الراء فرأى جوته يحني وقد حنى ظهره وأمسك قبعته بيده حتى كادت تلامس الأرض .

وهناك قصة أخرى نرى من الواجب ذكرها وإن كانت مشكوكا في صدقها . فقد قيل إنه بينما كان جوته وبتهوفن يتنزهان في حدائق كارلسباد ، كان المتنزهون يحيوها عن اليمين وعن اليسار حتى ضاق جوته بهم ذرعا ، فقال لصديقه : « يضايقني أنني لا أستطيع التخلص من مظاهر هذا الإعجاب » فأجابه بتهوفن : « لا تنزعج كثيراً يا صاحب السعادة ، فاعل هذه المظاهر موجهة إلى شخصي » على أنه بعد وفاة جوته عثروا بين

أوراقه على رسالتين فقط بعث بهما إليهما بتهوفن وفيهما الدليل الوافي على إعجاب الموسيقى بالشاعر إعجاباً مليئاً بالتبجيل والإحترام وفي ذلك العهد أقبل جوته على مطالعة شعر حافظ الشيرازي الشاعر الفارسي المعروف ، وكان « هامير » قد نقل شعره إلى الألمانية فوجد فيه كثيراً من الصور الجديدة والوصف الجميل والالهام البعيد ، مما أثار في نفسه إعجاباً كبيراً ، وبعث فيه الرغبة إلى تحديده ، فنظم على طريقته قصائد أطلق على مجموعتها اسم « الديوان » وقد أثارت تلك المطالعة فضول جوته إلى معرفة الأدب الشرقي فأقبل على مطالعة كتب أخرى ذكر مؤرخوه بينها كتاب أسفار إلى فارس الهند بقلم « شردن » ومجموعة الأشعار العربية التي نقلها إلى الفرنسية المستشرق « سيلفستر دي ساسي » أما قصائد « الديوان » فقد جعلها جوته في شكل حوار بين « يوسف » و « سليكه » وإذا كان « جوته » « يوسف » فمن كانت « سليكه » ؟

يقال إن جوته وجدها بمدينة إينا في شخص « ماريان يونج » زوج صديقه السرى « فيلما » وكانت بالرغم ، من قصر قامتها وبدانة جسمها ، جميلة فتانة في نضارة وجهها واستدارته ، وفي

الدعابة المثلثة في عينيها الضاحكتين ، وفي حديثها العذب وفنّها الموسيقي . ولما شعر جوته بأن حبه لها أخذ يملك عليه جوانب قلبه خاف مغبته وخشى أن يقوده إلى أبعد مما يريد منه فانقطع عنها فجأة وسافر إلى « ويمار »

وتمتاز قصائد « الديوان » بحسن سبكها وإحكام عباراتها وجمال صورها . على أن علماء النقد أخذوا عليه إكثاره من استعمال التعابير الشرقية واستعانت به بسعة اطلاعه على قوة بادرته فجاء الشعر في بعض الأحيان فاتراً ينم عن ثقافة واسعة وفن فياض ، أكثر مما يدل على شاعرية قوية . لذلك قالوا إن الديوان دليل على بدء انحطاط مواهب جوته الشعرية .

وكان مؤتمر « فينا » الذي عقد في سنة ١٨١٥ بعد سقوط نابليون ونفيه إلى جزيرة « سانت إيلين » قد ألقى من شأن مقاطعة ويمار فازدادت أعمال جوته الإدارية ، وناط به أمير المقاطعة الذي صار يحمل لقب « جران دوق » أي الدوق الكبير إدارة المعارف والفنون الجميلة ، فضلاً عن رئاسة الوزراء ، وإدارة المسرح وكانت الأيام تتبدل ، والأفكار العامة تتطور متجهة نحو تأييد سلطان ، الشعب والحد من سلطة الحاكم . وكانت أقطار

جديدة تطلع في سماء الأدب ، ومواهب طريفة تحاول أن تجد لها مكانا فيها. ولكن جوته الشيخ لم يستطع أن يتطور مع الأيام وأن يفهم جمال الأهل الجديدة . ولعله كان يخشى أن تصير بدورا كاملة تزاوجه شهرته وسلطانه .

ظل « جوته » محافظا في سياسته ، مستبدا في آرائه ، ارسقراطيا في نزعات نفسه ، يحقر الشعب ويخشاه . وقد عارض في سن دستور جديد لمقاطعة ويمار ، وتأليف مجلس نيابي ، وإطلاق حرية الصحافة . وشاء له استبداده مرة أن يرسل فرقة من الجنود لتفريق مظاهرة قام بها طلبة جامعة « إينا » . وكذلك فرض « جوته » سلطانه على مسرح ويمار ، فكان لا يرضى بان تمثل فيه غير القصص التي توافق ذوقه وتوائم مذهبه الأدبي .

ولم تكن مشاغله في داخل منزله باقل خطرا منها في الخارج . فهذه زوجته تموت في ٦ يونيو سنة ١٨١٦ فينظم ساعة وفاتها أربعة أبيات من الشعر ثم ينصرف إلى أعماله الإدارية ليسلو فيها حزنه . وهذا ابنه « أوجست » الذي لم يكن سر أبيه ، فهو شاب فاسد الأخلاق عصبي المزاج ، لم يصبر على تحصيل العلم ولم

ينل قسطاً وافراً من التربية ، بل نشأ نزقاً سكيراً ، وقد فكر والده أن الزواج يحد من نزق نفسه ويكبح جماح أهوائه ، فاحتار له فتاة رقيقة الشعور حسنة التهذيب ذكية الفؤاد اسمها «أوديل دي باجويش» ، وعقد الزواج في ١٧ يونيو سنة ١٨١٧ ولكن الزوجة لم تلبث أن شعرت بتعاسة حياتها لأن زوجها ظل مسترسلاً في غوايته إلى حد شأن فاضح .

على أن هذه المشاكل العائلية ، وتلك المتاعب الإدارية ، لم تكن لتبعد جوته عن السفر في صيف كل عام إلى المدن المسائية للاستشفاء والاستجمام ، كما أن الشيخوخة لم تحل دون تذوقه الجمال وهيامه بالجماليات .

وكان أن قصد «جوته» في صيف سنة ١٨٢١ إلى مدينة «مارنباد» ، وأقام في منزل تديره أسرة تتألف من خمس نسوة بينهن الفتاة «ايلربك دي ليفتزو» ، وكانت رقيقة الحاشية ذات حياء وخفر ، فألهبت شعوره بعينها الزقاوين ونظراتهما البريئة الساذجة .

كان جوته يلازمها في المنزل فإذا خرج إلى التنزه دعا الأسرة لمرافقته ، وكان روح الشباب الذي لم يفارقه أخذ يستيقظ عنيفاً

قويًا ، فنى شيخوخته ، وتجاهل ما بين سنه المتقدمة وسن الفتاة الشابة من تفاوت وفرق ، ونسى كذلك مقامه الكبير فى الدولة والأدب ، واستسلم لـحب صامت عنيف . وكانت نزوات ذلك الحب تهدأ فى الشتاء وتتقد جذوتها من جديد فى الصيف عند ما يعود إلى مارينباد ، وطال به الصمت حتى أرهقه . لماذا لا يتزوج من هذه الفتاة التى يحبها ؟ ولماذا يقيم وزنا للفرق بينهما فى السن مادامت العواطف تقارب بينهما ؟ وما دخل هذه الفروق إذا كان الجسم لا يزال قويًا والقلب فتياً ؟

ورضى (الجران دوق) أن يتقدم بنفسه خاطبًا الفتاة الكبير وزرائه . وقد وعدها بأن يهبها منزلاً فخماً لتقيم فيه أسرتها ، وأن يجرى عليها معاشاً بعد وفاة جوته . فكان رد الفتاة أنها تحب الشاعر الكبير حباً أبويًا خالصاً ، وأنها تقف حياتها لخدمته لو أنه كان وحيداً لا أسرة له ، أما الارتباط بالزواج به فإنها تأباه . وهكذا عاد جوته أدراجه إلى ويمار كسير القلب حزينه ، طاوياً فى نفسه آلامه ، مودعاً الحياة التى كان يظن أنها لا تزال تبتسم له كما تبتسم للشباب ، غاد إلى شعره وأدبه فنظم قصيدة فى غرامه المتأخر ، وشرع فى تأليف الجزء الثانى من قصة « فاوست »

أما ابنه فقد نغم عليه تفكيره في الزواج خوفاً من أن يفوته ميراثه منه . فخاصمه خصاماً أصيب بعده « جوته » بنوبة قلبية كادت تودي بحياته .

وكان هذا الابن لا يزال آخذاً بحياة المرح واللاهو ، يأوى إلى منزله في كل ليلة قبيل الفجر وهو يترنح سكراناً . ففكر والده في سنة ١٨٣٠ أن يبعث به إلى إيطاليا ، لعله يجد في مشاهدة روائعها شفاء لأدواء نفسه ، كما وجده هو من قبل . ولكن هذا السفر لم يأت بالنتيجة المنشودة ، بل ظل الابن عاكفاً على ذلك اللون الشاذ من حياة الاستهتار والمجون حتى قضى نحبه فجأة يوم ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٣٠ ، ونهى إلى والده في ١٠ نوفمبر في كتاب أرسله إليه « كستنر » وزير هانوفر المفوض . وهكذا شاء عبث الأقدار أن يكون ابن « شارلوت بوف » التي خلده جوته حبه لها في « آلام ورثر » هو الذي يبعث إليه بالنبأ الفاجع .

وقد وجد الشاعر الشيخ عزاء عن مصابه الأليم في حفيديه ، وفي متابعة أبحاثه العامة التي كان يرسل بشأنها بعض علماء فرنسا من أمثال « كوفيه » وغيره ، وفي إتمام الأسفار الأدبية التي ابتدأها مثل « شعر وحقيقة » و « فاوست » وقد انتهى من هذه

القصة الأخيرة في شهر أغسطس سنة ١٨٣١ فكانت ختاماً رائعاً
لحياته الطويلة .

كان جوته قد أصيب بنزيف دموي غب وفاة ابنه فتغلب
عليه حتى شفى منه . ولكنه أضعف رئتيه . وفي يوم ١٦ مارس
سنة ١٨٣٢ شعر ببرد عقبه حى ، فلزم فراشه مكافحاً الداء الذى
ما لبث أن اشتدت وطأته عليه ، وفي صباح يوم ٢٢ مارس استيقظ
من نومه وسأل عن اليوم فلما أخبر به قال أنه بشرى الربيع . ثم
عاوده النوم ، وكانت نوافذ الغرفة مغلقة ، وعند ما أفاق من جديد
طلب شيئاً من النور . وكان هذا الطلب آخر ما نطق به . وقضى
نحبه قبل ظهر ذلك اليوم بقليل فانطفأ بوفاته سراج أنار الإنسانية
أكثر من نصف قرن تقريباً . ولكن نور ذلك السراج لم يخب
فهو لا يزال متألقاً سامى القدر عظيم الخطر .

فاوست

شغلت قصة « فاوست » تفكير « جوته » طول حياته . فقد تراوحت فكرتها في نفسه منذ سنة ١٧٧٢ ووضع قطعة من الجزء الأول في مستهل عهده بمدينة « ويمار » سنة ١٧٧٥ ، وقد وجدت صورتها الأولى بين مخلفات مدام دي ستين ، ثم كتب قطعة أخرى وأعاد النظر في الأولى ونشرها سنة ١٧٩٠ ، وكتب في سنة ١٨٠٠ قطعة من الجزء الثاني مثل فيها حب « فاوست » لهيلين ، وفي سنة ١٨٠٨ ظهر الجزء الأول من القصة . ثم شرع بكتابة الجزء الثاني في سنة ١٨٣٤ فآتمه سنة ١٨٣٦ ، أي قبل وفاته بعام واحد . وقد استمد « جوته » موضوع قصته من شخصية اختلف الباحثون في حقيقتها ، فقد روى بعضهم أن هناك رجلا كان يسمى « جان فاوست » ، ولد في أواخر القرن الخامس عشر بمدينة « كنتلنجن » بمقاطعة « ورتمبرج » ودرس علوم الطبيعة والكيمياء في « كراكوفيا » ، وأتفق في الفسق والفجور ثروة طائلة ورثها عن أعمامه ، فلما افتقر شاء أن يعوض ثروته بتجاريب

كيميائية ترمى إلى تحويل المعادن إلى ذهب، وكانت هذه الفكرة شائعة في القرون الوسطى . وهنا تتداخل الخرافة بالتاريخ حتى ليصعب التفريق بينهما وتمحيص الحقيقة .

يروى أنه كان لهذا العالم خادم يدعى « وجبر » أطلعه سيده على أسرار العلوم التي حفظها ، وأخصها السحر ، فخذقها الخادم حتى قيل إن التلميذ تفوق على أستاذه ، وصاروا يسافران معاً ويطوفان البلاد الألمانية ، فيمرضان أعمالاً شيطانية كانت مشار إعجاب ودهشة كل من يراها . كان فاوست يظهر خادمه تارة كأنه خيال ملم ، وتارة كأنه إبليس نفسه ، وكان يسميه وهو في هذه الصورة « مفيستوفيلس »

وقد طال طواف فاوست في البلاد مدة أربع وعشرين سنة ، وشوهد في بعض المدن يستحضر الأرواح ، وقد ذكروا روح منها الإسكندر المقدوني ، وهيلين زوج منيلاس التي جرت لأجلها حروب طروادة الشهيرة ، ويقال إن فاوست أحبها ، وأنه لم يكتف بروحها تمثل أمامه بل رغب إلى شيطانه أن يبعثها حية ، وأنه تزوج بها .

وفي ليلة من ليالي سنة ١٥٤٠ وجد « فاوست » قتيلاً ،

وقيل إن خادمه « وجنر » كان إبليس نفسه ، وأنهما كانا قد اتفقا على أن يبيع « فاوست » نفسه له على أن يطلعه إبليس على أسرار السحر و يحقق رغباته إلى أمد معين ، وأنه عند نهاية العقد قتله خنقاً ، ثم مزق جسمه إرباً إرباً وحمل روحه إلى الجحيم . أما الحقيقة فهي أن المال الذي جمعه « فاوست » بشعوذته أغوى خادمه فاغتاله على تلك الطريقة الشنيعة .

ويقول الكاتب « جيرار دى نوفال » ، وهو أول من نقل قصة فاوست إلى اللغة الفرنسية ، أن « جان فاوست » كان من مدينة « ماينس » ، وأنه فى سنة ١٤٥٠ ساعد جوتنبيرج ، مخترع الطباعة ، بماله على الوصول إلى اختراعه ثم استغله استغلالاً شنيعاً حتى اضطره إلى أن يتنازل له عن اختراعه . وأنه بعد ذلك حمل هذا الاختراع إلى فرنسا حيث عرضه فى قصر الملك لويس الحادى عشر ، وتوفى فى باريس بالطاعون . ثم يقول الأديب الفرنسى أن رهبان الأديرة نقموا على « فاوست » تشجيعه لاختراع الطباعة ومساهمته فيه فلغقوا عليه تلك الخرافات التى ذكرناها للنيل منه .

وقد تناول قصة « فاوست » غير واحد من الأدباء قبل « جوته »

ولكن أحداً منهم لم يبلغ الشأو الذي بلغه جوته بحيث نسخت قصته كل ما تقدمها .

وقصة فاوست تمثيلية تقع في جزأين أولهما في ثلاثة فصول مهد لها بمقدمتين والثاني في خمسة فصول .

قوام المقدمة الأولى حديث يجري بين مدير المسرح الذي يود إرضاء النظارة ، وبين الشاعر ، مؤلف الرواية ، الذي ينبغي أن يخلد بقصته ، وبين شخص ثالث فكه يسخر من الخلود ويود لو يصل إلى تصوير الحقيقة في شكلها الواقعي .

أما المقدمة الثانية فتجربى حوادثها في السماء حيث يظهر الله تحف به الملائكة ، فيتقدم إبليس باسم «مفسدوفيلس» ويعرض على الباري تعالى أمر «فاوست» ويقول له : «هل تراهن بأنك ستفقد «فاوست» إذا أذنت لي أن استغفريه شيئاً فشيئاً حتى يصير طوع هواي» فيقبل الله الرهان مجيباً : «حسناً . حول هذه النفس عن نبعها الأول وسربها إن استطعت في طريقك ، ولكنه سيتولاك الخجل حين يضطرك الاختبار إلى الاعتراف بأن فاوست هو الرجل الصالح الذي يتعرف الطريق القويم ، بالرغم من النزعات القائمة التي تتدافع في نفسه »

نم يأخذ « جوته » بحوادث قصته . فيصور في الفصل الأول منها « فاوست » كنموذج كامل لرجاحة العقل والعبقريّة الفذة ، فهو عالم أحاط بكل العلوم ، ووقف على جميع المذاهب الفكرية ، بحيث لم يبق على الأرض شيء لم يعرفه ولم يره . ولكنه بعد أن بحث كل العلوم ، وتبطن أسرار الفكر والديانات والمعتقدات والمذاهب ، يطمح في خياله إلى معرفة أسرار غير المنظور ، ويناجي نفسه بأن يكشف عن الطبيعة سترها الذي يغشى حقيقتها ويحجب خفاياها . وهو لهذا يرم بالحياة وما وراءها ، يود لو ينتحر ليخلص من شهوة المعرفة التي تعذب نفسه بعد أن بلغ الحد الأقصى من العلوم والمعارف ، فيبحث لأجل ذلك عن سم كان قد أعده لمثل هذا اليوم . ولكن فاوست يسمع قرع أجراس عيد الفصح ، وتصل إلى أذنيه أصوات المرتلين يقيمون مراسيمه في الكنيسة المجاورة لمنزله ، فيشعر بحنين إلى الماضي الذي تعيده إلى نفسه ذكريات العيد . غير أن نزوات فكره تعاوده ، لأنه مضطرب في إيمانه ، كما هو قلق في شكوكه . ويشعر بأن نزق الهوى أخذ يماود نفسه بعد أن ظن أن جذوته قد انطفأت فيها ، فيطمح إلى الاسترسال في نشوته حتى المثالة ، وتسول له نفسه أن يستحضر

بين يديه إبليساً بفعل سحره العجيب الذى حذقه . ولكنه لا يلبث أن يطرد هذه الفكرة من ذهنه ، ويخرج مع خادمه « وجنر » ليشارك القوم فى احتفالهم بالعيد . ولكن نفسه تظل حزينة ، ولا يزال يشعر بازدياد روحه ، فجزء منها يصبو إلى الشمس سموماً ، والجزء الآخر يرسف بأصفاد هذه الأرض التى لا يستطيع الانفكاك منها .

وقد اختار إبليس تلك الساعة لينصب له الشباك التى يريد إيقاعه فيها . يظهر أولاً فى شكل كلب يتبع فاوست إلى غرفته فيلهيه عن مطالعة التوراة التى أقبل عليها للتعزية والشكوى . ثم يتحول إلى شكل آخر فيبرز فى صورة « مفستوفياس » ، ويعنيه بأن ينيله ما يريد من نعم الدنيا إذا رضى أن يبيعه نفسه ، فيقبل فاوست هذه الصفقة ، ويرافقه مفستو إلى عجز تسقيه أكسير الشباب .

يتحول فاوست فى الفصل الثانى إلى شاب أنيق يرتدى أحدث الأزياء وأبهجها ، ويذهب مع رفيقه مفستو إلى حانة فيجريان النبيل من رجل منضدة بمجرد ضربها برجلهما ، فيدهش الطلبة المجتمعون لهذا العمل العجيب . ثم ينضح مفستو لصاحبه بأن

يمشق «مارجريت» ، ولعلها من أجمل الشخصيات التي خلفها خيال شاعر ، لأنه جعلها مثالا حياً لوداعة القلب وخفر النفس ورقة العاطفة . يلتقي بها فاوست لأول مرة في أحد الشوارع فيقول لها أنها آتية جميلة ويسألها أن تأذن له بأن يرافقها . فتدافعه بأنها ليست جميلة ، وأنها ليست بحاجة إلى من تمكئ على بذراعه حتى تصل إلى منزلها ، فيجب بها ، ويقسم أنه لم ير مثلاً طيلة حياته . لأن هياتها تدل على أنها ، حسنة الأخلاق متواضعة النفس ، أنه لن ينسى ما عاش حرة شفيتها وجذوة خديها . لقد انطبعت في أعماق قلبه طريقة خفضها ليمينها ، وصورة ثوبها القصير ، شرفاً أنها للحلابة .

ظلت مارجريت تفكر بكلمات الأطراء التي سمعتها من فاوست ، وكانت وجنتاها تبحران خجلاً كلما جرى ذكرها في خاطرها ، انها خجلة لـ كنهه خجل يخالطه كثير من الفخار لأنها أعجبت شاباً أنيقاً شريفاً .

ثم يحاول فاوست ومفيسفو إغواء الشتاء ، فيتسللان خفية إلى مخدعها ، ويضعان فيه سوطاً محشواً بالجواهر ، ثم يضرب فاوست

لها موعداً . وتم الغواية ، فتقنع مرجريت في شرك الحب التي نصبت لها .

تمر حوادث القصة بعد ذلك سريعة فقد أتعب هذا الحب فاوست فمله . وعلم « فالنتين » ، شقيق الفتاة ، بعار أخته فشاء أن يشار لها ، فأصيب بضربة قاتلة بفضل تدخل مفيستو ، ولا سبيل إلى غلبة من كان إبليس نصيره ، فيموت الشاب لاغناً أخته .

وتظهر مرجريت بعد ذلك في الكنيسة بين جوقة المرتلين ، وقد اختفى مفيستو وراء أحد أعمدة الكنيسة القريبة منها ، وراح يذكرها بسنى طهرها وينعى لها فضيلتها . إنها تشعر بثمرة الحب في أحشائها ، وقد أصبحت أثيمة لا مستقبل يرجى لها في الحياة . وفي الفصل الثالث تشهد فاوست يشهد به الحنين إلى مرجريت فيعود إليها فيجدها سجيناً لأنها بعد أن هجرها حببها قتلت الطفل فحكم عليها بالإعدام . فيعرض عليها فاوست الهرب من سجنها فتأبى لأن العذراء والدة الآله أسعفتها في محنتها وسكبت في قلبها النعمة والسلوان فهي تنتظر حياة النعيم وتأبى المعونة من أهل الجحيم .

وعندئذ يسمع صوت ينادى من عل « لقد أنقذت » فيخاف
مفيستو أن يفر فاوست من حبائله فيهرب به .

مثل « جوته » فى هذا الجزء الأول من قصته « فاوست »
شخصيات تعد فذة فى نوعها فريدة فى مدلولها . وتكاد تكون
القصة وحيدة نسجها فى أدب العالم أجمع .

وأول هذه الشخصيات « مفيستوفاس » ، فهو مزيج بين
الجد والمزل ، إنسان مهذب صقلته المدنية ، أنيق الهندام ، ظريف
الحديث ، يتكلم عن الله فى خفة روح ، ويسخر من النساء ،
ويحلل شذوذ أخلاق الناس فى تهكم لاذع ، بل هو يسخر بكل
ما فى الناس من نزعة سامية . يرى الحياة أضحوكة ، والفضيلة
كلمة جوفاء . إنه إبليس الذى لا ينعم بغير الشر يلحقه بالناس ،
ولا تطيب نفسه إلا إذا رآهم يتمرغون فى حمأة العار والفجور .
ولكن الغواية التى يردى إبليس الناس فيها تنتهى بهم إلى
عكس ما يرجو .

إنه يدفع بمارجريت إلى اليأس فيقودها إلى التوبة ، ويدفع
بفاوست إلى حياة تجمع بين العمل واللذة فيفضل العمل على اللذة ،

وهكذا تجد مفيسـتو يعمل في سبيل الخير والصلاح في حين أنه يبنى الشر الفساد . أو كما قال جوته على لسان الله تعالى : « أن وجود الشيطان ضروري للإنسان لأنه يدفع به إلى العمل ، ولولاه لضعف نشاط الناس وهمد » .

أما شخصية فاوست فقد مثلها جوته على تقيض مفيسـتو أنه . رجل فكر يبحث عن الحقيقة ويرغب الوصول إليها ، فهو يريد أن يفهم أسرار المعاني التي تعبر عنها الألفاظ ، وأن يأخذ باللباب دون القشور . ويطمح إلى معرفة كنه الأشياء وأصولها وأسبابها وقوتها الدافعة . وفي سبيل هذه المعرفة يدرس السحر و يأخذ به لأنه أفضل من بقية الماوم . وقد دل الاتفاق الذي أبرمه مع إبليس على هذا جميعه ، كما دل على روح سامية شريفة لا يفهمها مفيسـتو . فهو لم يقصد من ذلك الاتفاق أن يتمتع باللذة فحسب ، بل أراد أن يطوف بكل ما في العالم من منح سواء فيها ما كانت صالحة أو شريرة ، وقد اختار أشد أنواع اللذة ، وهي التي يتبعها الألم . وفي شخصية فاوست تتغلب الروح أبدأً على المادة ، كما تتغلب على أهواء النفس شهوات اللذة والمعرفة والعمل ، فهو طاهر عفيف حين يهيم حباً بمرجريت وحين يقسم أنه يحفظ عهد

حبه أبداً ، وهو مخلص فيما شعر به من ندم على ما فرط منه بعد أن أنتم في حبه .

تمثل إذن شخصية فاوست الإنسانية في عظمتها وانحطاطها . إنها تمثل الرجل الأعلى الكامن في نفس كل واحد منا ، ذلك الرجل الذي يطلب من الحياة أقصى ما تستطيع أن تمنحه للإنسان ، أو كما جاء على لسانه : « الرجل الذي يشتر بفقر الحياة وضيقها ويسمو إلى عالم اللانهاية » . وتمثل كذلك الرجل الذي تقاذفه شتى الأهواء ، فهو متعطش إليها جميعاً ، يتبع الشهوة حين ينتهي إلى اللذة فإذا بلغها أسف على الشهوة . إن فاوست هو الرجل ذو النفسيتين : إحداها عالقة بالأرض ، وأخرها نازعة إلى السماوات العلى .

وأهل شخصية مارجريت التي يقال أن جوته كتبها دفعة واحدة في سنة ١٧٧٥ أوضح هذه الشخصيات الثلاث ، وأظهرها ، وأقلها تعقيداً . فهي تمثل الفتاة الساذجة البعيدة عن الأناقة والتعريف ، في رقة عاطفة ، وطهارة نفس ، كانت تجهل قبل أن يتحدث إليها فاوست أنها جميلة ، وظلت بعد ذلك لا تفهم حبه ، ولا تجد في نفسها الأسباب التي أثارت إعجابه وحبه .

أنها ترد على كلمات الإطراء التي يوجهها إليها بأن يديها خشتان
لكثرة ما تشتغل في منزلها . وتسأله في سذاجة إذا كان
يؤمن بالله .

وتظل مرجريت محتفظة بطهرها في نظر القارىء حتى بعد
الآثام التي ارتكبتها أو كانت سبباً لها ، وهي فقدتها طهرها ،
وموت أمها مسمومة ، ومصرع أخيها ، وقتلها ابنها . فقد استطاع
جوته أن يصور ندمها وحزنها في مشاهد سريعة جميلة رائعة ، بلغت
أقصى حدود التأثير والإيداع . فمرجريت تبذل بدموعها الأزهار
التي تضعها على إيقونة العذراء ، وتقبل لعنات أخيها حانية الرأس
مستسلمة ، ويستولى عليها حزن عميق حين تسمع تراتيل المصلين ،
وأخيراً تأبى أن تلحق بحبيبها وأن تهرب من السجن ، وترضى
بأن تموت كفارة عن خطاياها .

وقد بلغ جوته في هذه المسرحية الشعرية أقصى حد من براعة
الأسلوب وقوته ، حتى ليقال أن المطالع لا يجد فيها على طولها لفظاً
نافراً ، أو بيت شعر ضعيف التركيب . وهي لهذا تعد رائعة من
روائع الأدب الألماني .

على أنه يؤخذ عليها ما يؤخذ على الكثير من مؤلفات جوته ،

وهو تفكك بعض الأجزاء ، وضعف تلاحمها ، وقد اعترف جوته بذلك . أما سبب هذا الضعف فيرجع إلى أنه كتب فصولها المتناثرة في أوقات مختلفة بحيث امتد الزمان به بين أولها وختامها . وقد جرى جوته في شخصيات قصته على عادته من تمثيل بعض أصدقائه أو نفسه فيها . فمثل « ميرك » في شخص مفيسستو وكان جوته يلقب صديقه بهذا الاسم ، وقد لازمه ردحاً طويلاً من حياته كما لازم مفيسستو فاوست ، وتجد في كلام مفيسستو كثيراً من التهمك اللازع الذي كان جوته يتبرم به في معاشرته الطويلة لميرك ، والذي كثيراً ما كان يبرد من حماس نفسه ونزعاتها .

أما « فاوست » فإن جوته مثل فيه نفسه ، فقد وصفه بعض من عرفه في سنة ١٧٧٥ ، أي حين أخذت فكرة القصة تختمر في نفسه ، أنه كان جباراً ثائراً على الله ولا شك أن الشاعر التي أجراها على لسان فاوست أحس بها في داخل نفسه . وكان جوته مثله يشتغل بالكيمياء ، ويعجب بمناظر الطبيعة وقوتها الشاملة ويحاول إدراك معاني اللانهاية .

وقد أحب جوته كما أحب فاوست ، وكانت حبيبته « ليلي شوتمان » التي ذكرناها من قبل ، وكانت شقراء ذات قوام

أهيف وعينين زرقاوين صافيتين ، ولكنه لم يأنم كما أنم فاوست
لأنه كبح جماح أهوائه .

ونستطيع أن نقدر أن جوته أودع في فاوست قوة وحيه ،
ونزعات كبريائه ، واضطراب روحه ، ومثل في « مفيستو »
الشكوك التي ساورت نفسه ، وقدرته على تبطن أسرار الحياة ،
ونظرة العميق الذي نفذ به إلى ما وراء المنظور فاستطاع أن
يتعرف ضعف القاب البشري ، ومثل فيه كذلك نقمة روحه
وثورتها ، وقوة عارضته ، ومرح نفسه ، وظريف نكاته ، وضمن
القصة كلها جماع تجاربه في الحياة وما أوحته إليه من ملاحظات
في المجتمع وتأملات في العلوم والفلسفة .



أما الجزء الثاني من قصة فاوست فتمثلد ، بعد أن أخرجه
مفيستو من السجن الذي كانت تحتضر فيه مرحريت ، ليطلعها
على أسرار العالم كله ، ولم يكن قد أطلعها في الجزء الأول إلا
على عالم محدود ضيق ، وقد أراد جوته أن يعود بقصته إلى ما روته
الخرافة من حب فاوست لهياين ابنة بريام . وهذا الجزء في خمسة
فصول كما ذكرنا .

ففي الفصل الأول نجد فاوست وقد برىء من شهوة المعرفة ،
 وصار مطمئناً إلى نفسه وأحلامه ، بعيداً عن نزعات الثورة التي
 كانت تعذبه من قبل ، ولكنه قلق لهذه الحالة ، قليل الصبر
 عنها ، فينتقل به مفيستو إلى قصر الأمبراطور حيث يمثل دور
 مضحك الملك ، وكان خطر الإفلاس يهدد المملكة ، فنصح
 مفيستو الملك أن يصدر نقوداً ورقاً درءاً للخطر ، فأصدر وزيره
 بلاغاً نصه « إننا نحيط علم من يهمه الأمر بأن الأوراق المالية
 التي طبعتها تساوي قيمة كل واحدة منها ألف كوزون . وضمائمها
 الكنز العظيم المدفون في تربة المملكة » فأقبل عليها الناس
 وتنقذ الدولة من الإفلاس وسر الملك بذلك .

وكان القوم يقيمون في ذلك اليوم حفلة يرتدون فيها ثياب
 التنكر ، فأمر مفيستو ، بقوة سحره ، الحيوانات والأشجار فامتثلت
 أمام الملك الذي استزاده الدليل على مقدرته في السحر باستحضار
 الأرواح ، وهو يرغب أن يرى هيلين الجميلة وعشيقتها « باري »
 فاضطرب مفيستو لأنه لا سلطان له على إنصاف الآلهة . ولكنه
 نصح لفاوست أن يتوجه إلى « الأمهات » ، تلك الآلهة العظيمة
 التي تهيمن على العالم القديم في علمائها ، وهنا نجد جوته يستعين

بتضامه من علم الكيمياء الذى يفرق بين « الأمهات » التى تعنى بأصول الأشياء ، وبين المعادن والأجسام . فإذا حضرت هيلين ، أصيب فاوست باضطراب شديد ، وأحبها حباً عنيفاً ، فيندفع نحوها ويلبسها بفتاحه السحري ، فيحدث انفجار هائل ، وتختفى هيلين ويقع فاوست مغشى عليه ، فيحمله مفيستو إلى غرفته .

وفى الفصل الثانى يتقدم إلى فاوست رجل نحيل ضئيل يدعى « هومنيكولوس » وكان قد فطن إلى رغبته برؤية هيلين ، وإن لا شفاء لأمرض نفسه غير الاتصال بها . فينصح له بالانتقال إلى بلاد اليونان ، فيطير بهما مفيستو على بساط الريح إلى حقول « فرسال » ، حيث تجتمع مرة فى كل عام ، جميع الشخصيات الخرافية اليونانية ، ولكن « هومنيكولوس » ، وهو رمز عن الروح ، لا يزال فى الزجاجة التى ولد فيها ، فيشهد مرور المواقب ، حتى إذا مر موكب « جالاتيه » ، قذف بنفسه على عربته ، فتنحطم الزجاجة وتنبخر الروح وتلاشى . أما فاوست فيبحث عن هيلين ويسأل عنها كل من يراه .

إنها فى أسبرطة ، كذلك نجدها فى الفصل الثالث من غير انتقال أو تمهيد يفسر وجودها ، ومعها زوجها منيلاس غاضب

ناقم عليها . فيبرز لها مفيستو في شكل «فوركباده» ، وينصح لها أن تلجأ إلى جماعة من أهل الشمال المعتصمين في قمة جبل هناك ، فتفعل ، وتتصل هيلين بفاوست فينتقل بها إلى أركاديا وتلد له ولداً يسميه «أوفريون» ، وهو صبي عجيب جرىء ، يريد أن يطير إلى السماء فيهوى ، ويموت ، فتلحق به هيلين وتنزل وراءه إلى الجحيم تاركة ثيابها لفاوست .

ويقال أن هذا الفصل من أجمل فصول القصة روعة في أسلوبه . وقد مثل فيه جوته الشعر الاتباعي في شخص هيلين كما مثل نفسه في شخص فاوست . واتصال فاوست بهيلين هو الجمع بين الفن القديم والفكر الحديث . أما ابنيهما «أوفريون» فانه الشعر الجديد ، وقيل أنه مثل فيه اللورد بيرون .

أثرت هذه الفواجع في نفس فاوست فنراه في الفصل الرابع يطلب السعادة في العمل ، ويرغب الى مفيستو أن يحقق مطلبه . أما الفرصة فسانحة لأن الامبراطور الذي عمل بنصيحة مفيستو وأصدر ورق النقد لإنقاذ دولته من الإفلاس ، وجد نفسه أمام متاعب جمة تسبب عن ذلك النقد الذي زاد في خراب البلاد ، فقد عمت الفوضى كل دوائر الحكومة ، واجتمع رجال الدين

وانتخبوا عاهلاً جديداً استمال الجيش وسار به لمحاربة الامبراطور وخلعه . فیتقدم فاوست إليه ، ويحارب في صفه ، ويساعده بفعل سحره على أعدائه ، فينتصر الملك ويرضى عنه .

وقد مثل جوته في هذا الفصل الحروب الطويلة التي نشبت في القرون الوسطى بين الباباوية والامبراطورية الألمانية .

وفي الفصل الخامس يجمع جوته ما فصله في قصته الطويلة . لقد انتهى أمد العقد بين فاوست وبين ميفيستو ، وحانت وفاة فاوست ، فتقدم اليه أربع نسوة في ثياب رمادية ، تمثل الفكر والضمير والهم والتعاسة . ولكن ثلاثاً منهن لا يستطعن الدخول عليه . وتدخل التي تمثل الهم من ثغرة فتفتخ في عينه فيصاب بالعمى . على أن هذه الماهة لا تقل من عزمته على العمل ، لأن النور ينحصر في نفسه فيزيد في نفاذ بصيرته .

لقد عرف فاوست متع الحياة ولذاتها فإذا حلت الشيخوخة وجد أن كل شيء في الحياة باطل . وأن الأحران المثلة في مجموعة أولئك النسوة الأربع هي الطريق إلى حياة سامية وقد شاءت الأقدار أن يصاب بالعمى لكي يسير إلى مصيره دون أن تفسد عليه السبيل رؤية العالم الخارجى ومناظره .

ويأتى مفيستو بعد أن أعد لفاوست معدات الموت ، وحفر قبره فى القصر ، وتأهب لاقتناص روحه ، ولكن السماء تنشق . وتظهر جوفة من الملائكة تدرع الفضاء طولا وعرضاً . فيتراجع مفيستو مذعوراً فتغتنم الملائكة هذه الفرصة وتختطف روح فاوست وتحملها الى السماء بين تهليل المرتلين .

ونسمع بين أناشيد أولئك المرتلين صوت الخاطئة التائبة « عرجريت » تضرع إلى المذراء شافعة بفاوست ، تسألها أن ترافقه إلى السماء العليا ، لأن الملائكة يودون إحلاله فى الطبقات السفلى .

وهكذا ينتهى الجزء الثانى من قصة فاوست الذى ملأ « جوته » بالرموز والاشارات ، وقد ألمنا ببعضها ، وفيها مشاهد لا سبيل إلى استقصاء ما ترمز عنه ، وهذا الجزء مفكك فى بعض الأحيان لا رابطة تربط بين المشهد والآخر الذى يتلوه .

ويلاحظ أن فيه الكثير من ضعف الشيخوخة وثرثرتها . فقد شاخ فاوست ومفيستو وطعنا فى السن ، وهكذا كان « جوته » أيضاً ، فتغيرت النزعات النفسية ، وصار حديث الشيخوخة على جميع الأنسنة .

على أن قصة فاوست ستظل من أجمل الكتب التي دمجها
يراع عبقرى ، لما حوته من أفكار نبيلة ، وشعر قوى عنيف ،
وفلسفة في الحياة والدين جلية . وهى عنوان عصر خصيب
بالأفكار الحرة والأبحاث العميقة .

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف بمصر